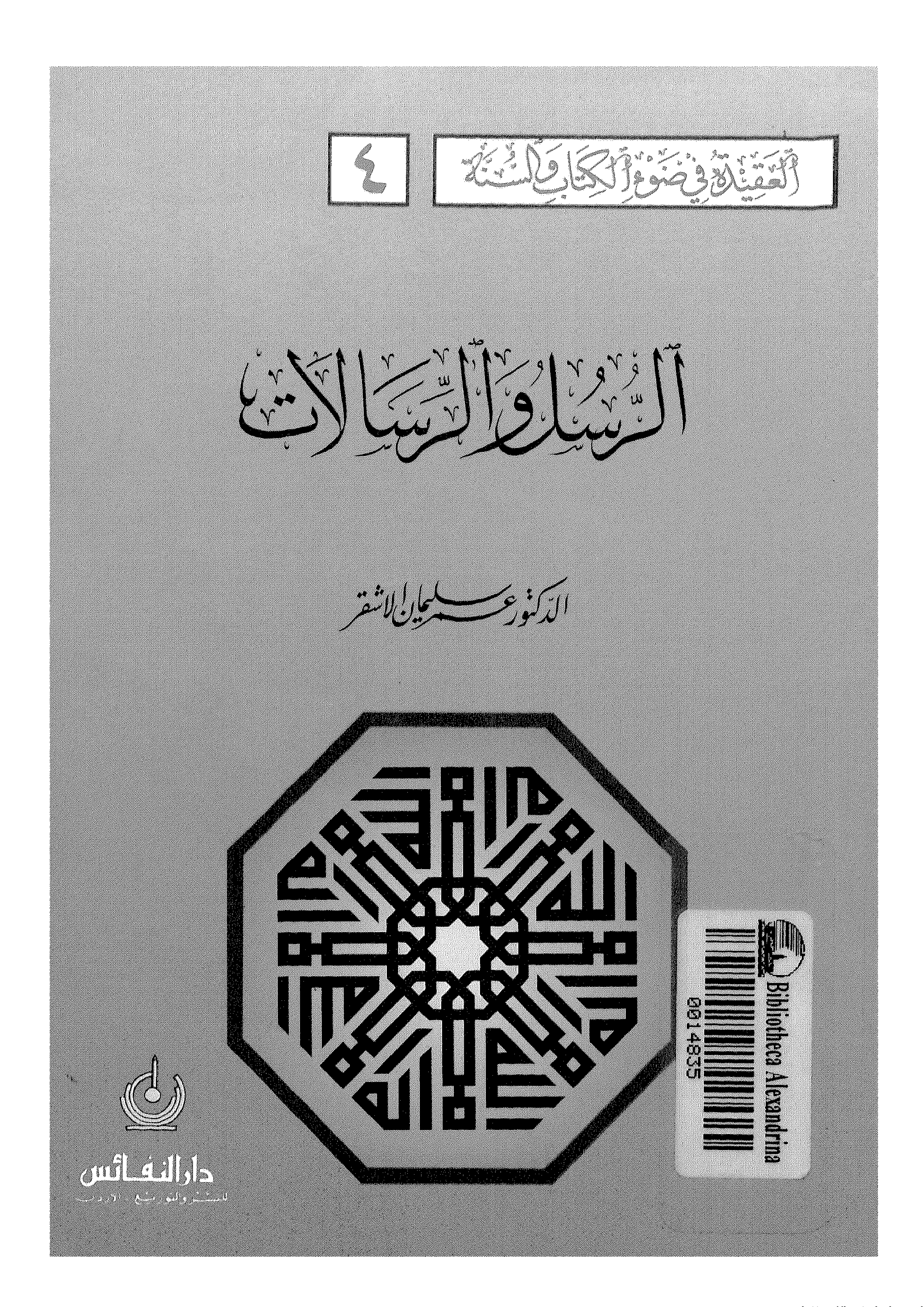

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة
٤
الرسل والرسالات
الدكتور عمر سليمان الأشقر
دار النفائس
Bibliotheca Alexandrina
0014835


الرسل والرسالات

الطبعة السادسة
١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م



دار النفائس
للنشـــر والتوزيـــع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس
هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص .ب : ٢١١٥١١

ـدة في ضوء الكتاب والسنة (٤)

الرسل والرسالات

تأليف



الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

٢١٤,٢٤
عمر

عمر سليمان الأشقر
الرسل والرسالات / عمر سليمان الأشقر . ط ٥ . عمان
(د . ن) . ١٩٩٠
٢٦٩ ص .
ر . أ .. ١٩٩٠/١٠/٧٠١
١ . الإيمان بالرسل . ٢ . الرسالات السماوية
أ . العنوان .
تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية .

رقم الإجازة المتسلسل : ١٩٩٠/١١/٧١٤
رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق :
الوطنية: ١٩٩٠/١٠/٧٠١

تمهيد

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾[1] .

الحمد لله الذي أنزل إلينا كتابا فيه نبأ ما قبلنا ، وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم[2] .

وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد « أرسله الله بالهدى ودين الحقِّ بين يديِّ الساعة بشيراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ، فختم به الرسالة ، وهدى به من الضلالة ، وعلّم به من الجهالة ، وفتح برسالته أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا ، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألفت به القلوب بعد شتاتها ، فأقام به الملة العوجاء ، وأوضح به المحجّة البيضاء ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع ذكره ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف

---

(١) سورة الكهف/١ ـ ٢ .

(٢) هذا حديث يرويه الترمذي في سننه وإسناده ضعيف ومعناه حسن وجميل ، ولم نذكره في المتن على أنه حديث منسوب إلى الرسول ﷺ .

أمره ، أرسله - ﷺ - على حين فترة من الرسل ، ودروس من الكتب ، حين حُرّف الكلم ، وبُدِّلت الشرائع ، وأستند كلّ قوم إلى ظُلَم آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، فهدى الله به الخلائق ، وأوضح به الطرائق ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأبصر به من العمى ، وأرشد به من الغيّ ، وجعله قسيم الجنّة والنار ، وفرَّق به ما بين الأبرار والفجار ، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه ، وموافقته ، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته ، وامتحن به الخلائق في قبورهم ، فهم في القبور عنه مسؤولون ، وبه ممتحنون »[1].وأصلي على آله الأطهار ، وصحبه الأخيار ، أبرّ هذه الأمّة قلوبا ، وأفضلها علما ، وأقلها تكلفا ، وعلى من سلك سبيلهم ، واستنار بنور الإسلام ، واستمسك بهدي القرآن ، وتابع الرسول الخاتم ، وبعد :

فهذا هو الجزء الرابع من سلسلة « العقيدة في ضوء الكتاب والسنة » وهو كالكتب التي سبقته ، جاء ليجلي العقيدة في ضوء المصادر الأصلية ، بعيدا عن التعقيد والجفاف والمصطلحات الفلسفية والكلامية .

ومباحث الرسل والرسالات متداخلة تداخلا كبيراً ولذا رأيت أن يصدر هذان الأصلان في جزء واحد ، ومن أجل هذا التداخل طال الباب الأوّل الذي يبحث في الرسل ، وضمر الباب الثاني الذي يبحث في الرسالات ، وما ذلك إلاّ لأنّ مباحث الرسل تضمنت كثيرا من مباحث الرسالات .

وقد اشتمل الباب الأوّل على ثمانية فصول ، في الفصل الأوّل عرَّفت النبيّ والرسول و بينت الفرق بينهما ، ووجوب الإيمان بالأنبياء والرسل ، وكفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل ، أو فرق بين الرسل ، كما بينت عدد الرسل ، وأسماء الرسل والأنبياء الذين ذكروا في الكتاب والسنة .

وفي الفصل الثاني بينت مدى حاجتنا إلى الرسل والرسالات ، وعدم استغناء

---

(١) هذا الكلام الطيب من كلام العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله انظر (لوامع الأنوار البهية ٢٦٢/٢) .

الإنسان بعقله عن وحي الله وشرعه .

وفي الفصل الثالث توسعت في بيان وظائف الرسل ومهماتهم .

وفي الفصل الرابع بينت الطريق الذي يعلم الله به أنبياءه ورسله وهو الوحي ، وبينت مقامات الوحي ، وصفة مجيء ملك الوحي إلى الرسول .

وذكرت صفات الرسل في الفصل الخامس ، وبينت أن الأنبياء بشر ، وبينت مقتضى هذه البشرية ، كما دللت على أنَّ الأنبياء حازوا الكمال البشريّ . وفي الختام ذكرت الأمور التي تفرد بها الرسل عن سائر البشر .

وفي الفصل السادس تحدثت بشيء من التفصيل عن عصمة الرسل ، وبينت الأمور التي هي محل للعصمة ، والأمور التي لم يعصموا منها ، وذكرت آراء بعض الفرق المخالفة ووجهة نظرها ، وبطلان قولها .

وقد طال الحديث في الفصل السابعِ عن دلائل النبوة ، فقد ذكرت آيات الرسل السابقين ، وتوسعت شيئا ما في ذكر آيات نبينا محمد ﷺ ، وتحدثت عن بشارات الأنبياء برسولنا محمد ﷺ ، وسقت طرفا منها ، وبينت أن من أدلة صدق الرسل أحوال الرسل ، ودعوة الرسل ، فإنَّ النظر في هذين لا بدَّ أن يهدي إلى الحق من أوتي بصيرة ورغبة في الهداية ، والدليل الخامس الذي ذكرته هو تأييد الله لرسله وأنبيائه .

والفصل الثامن خصصته لبيان فضل الأنبياء وتفاضلهم ، فالأنبياء أفضل الخلق ، ثمَّ هم متفاضلون فيما بينهم ، وقد ضلَّ أقوام فضلوا غير الأنبياء على الأنبياء فخالفوا اجماع المسلمين ، وقد بينت فساد قولهم .

والباب الثاني جعلته للرسالات السماوية ، ويقع في فصلين .

الفصل الأول : في الإيمان بالرسالات ، بينت فيه وجوب الإيمان بها كلّها ، وكيف يكون هذا الإيمان .

وقارنت ـ في الفصل الثاني ـ بين الرسالات السماوية وذلك لبيان الأمور الآتية :

أولا : مصدر هذه الرسالات والغاية من إنزالها .

ثانيا : العموم والخصوص فيها .

ثالثا : حفظها من التغيير والتبديل .

رابعا : مواضع الاتفاق والاختلاف في هذه الرسالات .

خامسا : الطول والقصر ووقت النزول .

وفي نهاية الباب بينت موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا ، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، وأن يعصمنا من الزلل في القول والعمل ، وأن ينفع بهذا الكتاب عباده ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلى الله على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم .

د . عمر سليمان الأشقر

الكويت

٢ من ربيع الأول ١٤٠١ هـ

٨ من يناير ١٩٨١ م

الباب الأوّل

الرُّسُلُ وَالأَنبيَاءُ

الفصل الأول

تَعَرْيفٌ وَبيَانٌ

تعريف النبي[1]

ـ في لغة العرب ـ مشتقّ من النبأ وهو الخبر ، قال تعالى : ﴿عمَّ
؟ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ « سورة النبأ/١ ، ٢ » .

سمّي النبيُّ نبيّا لأنّه مُخْبِرٌ مُخْبَر ، فهو مُخْبَر أي أنَّ الله أخبره ، وأوحى
لَتْ :مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ « سورة التحريم/٣ » ،
عن الله تعالى أمره ووحيه ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ « سورة
٤ » ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ « سورة الحجر/٥١ » . وقيل النبوة
النَّبوة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، وتطلق العرب لفظ النبيّ على علم
الأرض التي يهتدى بها ، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي ، أنَّ
فعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة ، فالأنبياء هم أشرف الخلق ، وهم
تي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم .

تعريف الرسول[2]

مال في اللغة التوجيه ، فإذا بعثت شخصا في مهمة فهو رسولك ، قال
كيا قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
﴾ « سورة النمل/٣٥ » وقديريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع

---

(١) هذه المسألة : لسان العرب ٥٦١/٣ ، ٥٧٣ ، بصائر ذوي التمييز ١٤/٥ ، لوامع الأنوار البهيّة ٢٦٥ .

(٢) هذه المسألة : لسان العرب (١١٦٦/٢ ـ ١١٦٧) ، المصباح المنير ص ٢٢٦ .

أخبار الذي بعثه ، أخذاً من قول العرب : « جاءَت الإبلُ رَسَلاً » أي متتابعة .

وعلى ذلك فالرُّسل إنّما سمّوا بذلك لأنَّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ « سورة المؤمنون/٤٤ » ، وهم مبعوثون برسالة معيَّنة مكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها .

الفرق بين الرسول والنبيّ

لا يصحُّ قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبيّ ، ويدلُّ على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل ، فقد ذكر الرسول ـ ﷺ ـ أنَّ عِدَّة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبيّ ، وعدَّة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً[1] ، ويدلّ على الفرق أيضا ما ورد في كتاب الله من عطف النبيِّ على الرسول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبيٍّ إلاّ إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ « سورة الحج/٥٢ » ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدلُّ على أنَّ الرسالة أمر زائد على النبوة ، كقوله في حقِّ موسى عليه السلام : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾« سورة مريم/٥١ » .

والشائع عند العلماء أنَّ الرسول أعمُّ من النبي ، فالرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، والنبيُّ من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ ، وعلى ذلك فكلُّ رسول نبيٌّ ، وليس كل نبيّ رسولا[2] .

وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمور : الأوّل : أن الله نصَّ على أنّه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ . .﴾ ، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبيّ البلاغ .

الثاني : أنَّ ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى ، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ، ثمَّ يموت هذا العلم بموته .

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١٦٧) ، لوامع الأنوار البهية (١/٤٩) .

الثالث : قول الرسول ﷺ « عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبيَّ ومعه الرهط ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبيَّ وليس معه أحد . . »[1] .

فدلّ هذا على أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنَّهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم .

والتعريف المختار أنَّ « الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبيُّ هو المبعوث لتقرير شرع من قبله »[2] .

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ قام نبيٌّ ، كما ثبت في الحديث[3] ، وأنبياء بني إسرائيل كلّهم مبعوثون بشريعة موسى : التوراة ، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا . .﴾ « سورة البقرة/٢٤٦ » فالنبي كما يظهر من الآية يوحى إليه شيء يوجب على قومه أمرا ، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التّبليغ .

واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى فهؤلاء جميعا أنبياء ، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل ، والحكم بينهم وابلاغهم الحق ، والله أعلم بالصواب .

الإيمان بالأنبياء والرسل من أصول الإيمان

الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان ، قال تعالى : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(٢) تفسير الآلوسي (١٥٧/١٧) .

(٣) البخاري في صحيحه ، انظر فتح الباري (٤٩٥/٦) .

مُسْلِمُونَ﴾ . « سورة آل عمران/٨٤ » .

ومن لم يؤمن بالرسل فقد ضلَّ وخسر ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ « سورة النساء/١٣٦ » .

الصلة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل والرسالات

الذين يزعمون أنَّهم مؤمنون بالله ولكنَّهم يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء يقدرون الله حقَّ قدره ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِ شيء﴾ « سورة الأنعام/٩١ » . فالذين يقدرون الله حقَّ قدره ، ويعلمون صفا التي اتصف بها من العلم والحكمة والرحمة لا بدَّ أن يوقنوا بأنَّه أرسل الرسل وأنز الكتب لأن هذا مقتضى صفاته ، فهو لم يخلق الخلق عبثا ، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَ يُتْرَكَ سُدىً﴾ « سورة القيامة/٣٦ » .

ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنَّه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الل وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾ « سورة النساء/١٥٠ - ١٥١ » .

فقد نصَّت الآية على كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ، يقول القرطبي في هذه الآية : « نصَّ سبحانه على أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر ، وإنَّما كان كفراً لأنَّ الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم ، ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها ، فكان كجحد الصانع سبحانه ، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية ، وكذلك التفريق بين الله ورسله »[1] .

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٦) .

الأنبياء والرسل جمّ غفير

اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ في الأمم قبل هذه الأمّة أن يرسل في كلّ منها نذيراً ، ولم يرسل رسولاً للبشرية كلّها إلاّ محمدا ﷺ ، واقتضى عدله ألاّ يعذب أحدا من الخلق إلاّ بعد أن تقوم عليه الحجّة : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ « سورة الإسراء/١٥ » . من هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشريّة كثرة هائلة ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيْهَا نَذِيرٌ﴾ « سورة فاطر/٢٤ » .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدّة الأنبياء والمرسلين ، فعن أبي ذرّ قال : قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيرا » وفي رواية أبي أمامة ،قال أبوذر: قلت: يا رسول الله ، كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرُّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيرا « رواه أحمد في مسنده »[١] .

من الأنبياء والرسل من لم يقصصهم الله علينا

وهذا العدد الكبير للأنبياء والرسل يدلنا على أنَّ الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل ، وأنَّ هناك أعداد كثيرة لا نعرفها ، وقد صرَّح القرآن بذلك في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ «سورة النساء/ ١٦٤»، وقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ « سورة غافر/٧٨ » .

فالذين أخبرنا الله بأسمائهم في كتابه أو أخبرنا بهم رسوله ـ ﷺ ـ لا يجوز أنّ نكذّبَ بهم ، ومع ذلك فنؤمن أنَّ لله رسلا وأنبياء لا نعلمهم .

---

(١) مشكاة المصابيح ١٢٢/٣ ، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني : إسناده صحيح .

الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن

ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولا ، فذكر في مواضع متفرقة آدم وهودا وصالحاً وشعيبا وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ومحمد .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ . .﴾ « سورة آل عمران /٣٣ » ، وقال : ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ « سورة هود/ ٥٠ » ، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ « سورة هود/ ٦١ » ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ « سورة هود/٨٤ » ، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ « سورة الأنبياء/٨٥ » ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . .﴾ « سورة الفتح/ ٢٩ » .

وذكر ثمانية عشر منهم في موضع واحد ـ في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلّاً هَدَيْنَا ، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ، وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . « سورة الأنعام/٨٣ ـ ٨٦ » .

أربعة من العرب :

من هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب ، فقد جاء في حديث أبي ذر في ذكر الأنبياء والمرسلين : « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر »[١] .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل العرب العاربة ، وأمّا العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل[٢] ، وهود وصالح كانا من العرب العاربة .

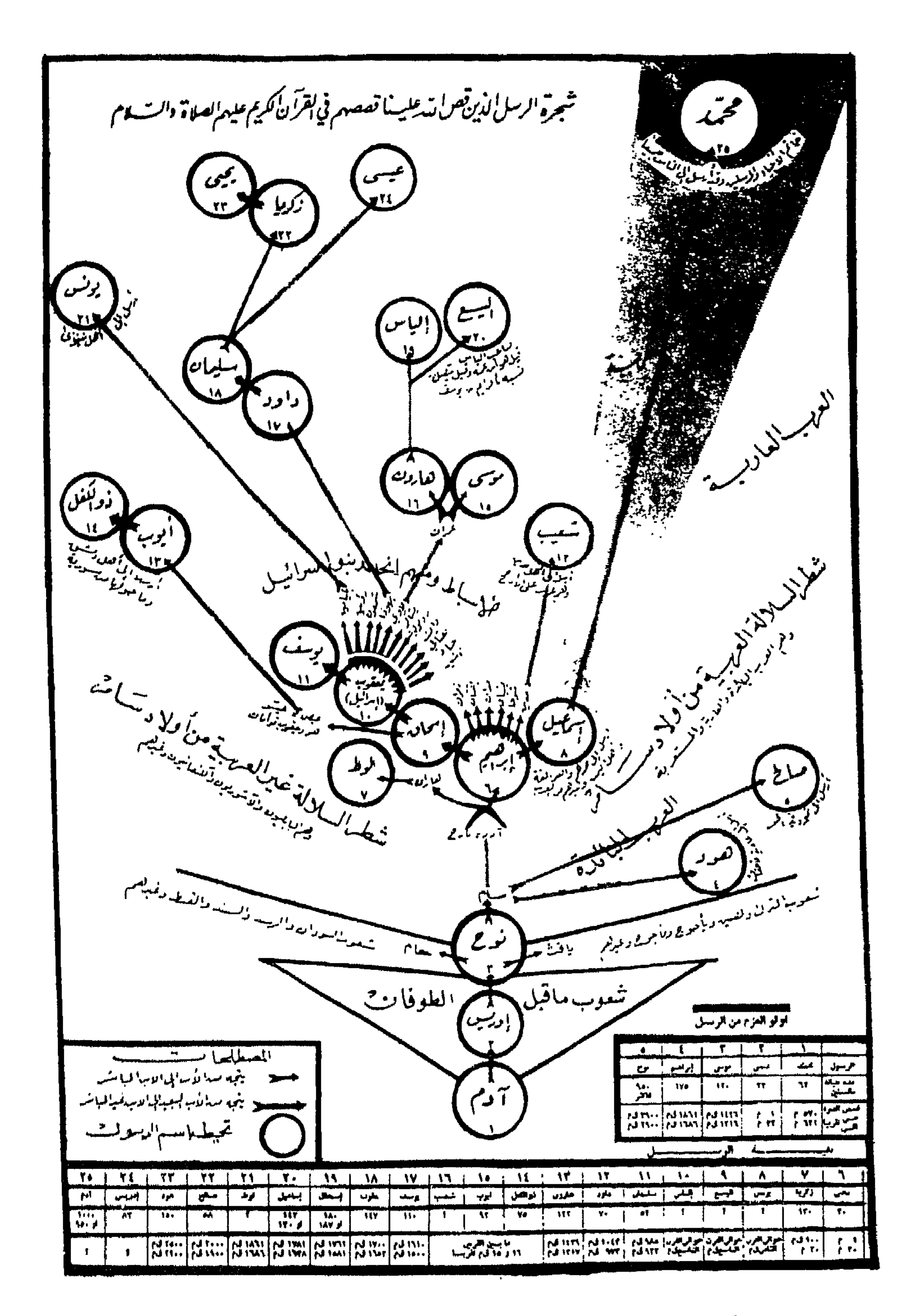
---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، البداية والنهاية (١/١٢٠) .
(٢) البداية والنهاية (١/١١٩ ـ ١٢٠) .

الأسباط

الأنبياء الذين سبق ذكرهم مذكورون في القرآن بأسمائهم ، وهناك بعض الأنبياء أشار القرآن إلى نبوتهم ولكننا لا نعرف أسماءهم ، وهم الأسباط ، والأسباط هم أولاد يعقوب ، وقد كانوا إثني عشر رجلا عرّفنا القرآن بواحد منهم وهو يوسف والباقي وعددهم أحد عشر رجلا لم يعرفنا الله بأسمائهم ولكنّه أخبرنا بأنّه أوحى إليهم ، قال تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَق ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ﴾ « سورة البقرة/١٣٦ » .

وقال : ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصارَى . .﴾ « سورة البقرة/١٤٠ » .



هذه الشجرة مأخوذة من كتاب العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكه .

أنبياء عرفناهم من السنّة

هناك أنبياء عرفناهم من السنة ، ولم ينصّ القرآن على أسمائهم ، وهم :

شيث :

يقول ابن كثير : « وكان نبيّا بنصّ الحديث الذي رواه ابن حبّان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعا أنّه أنزل عليه خمسون صحيفة »[1] .

يوشع بن نون :

روى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبيٌّ من الأنبياء ، فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ، ولما يبن ، ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ، فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر ، أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهمَّ احبسها عليَّ شيئا »[2] .

والدليل على أنَّ هذا النبيّ هو يوشع قوله ﷺ : « إنَّ الشمس لم تحبس إلاّ ليوشع ليالي سار الى بيت المقدس »[3] .

صالحون مشكوك في نبوتهم

ذو القرنين :

ذكر الله خبر ذي القرنين في آخر سورة الكهف ، ومما أخبر الله به أنه خاطبه ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ « سورة الكهف/٨٦ » .

---

(١) البداية والنهاية (٩٩/١) .

(٢) رواه أحمد ومسلم (انظر البداية والنهاية ٣٢٣/١) .

(٣) قال ابن كثير في البداية والنهاية : (٣٢٣/١) انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري .

فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبيّ كان معه ، أو كان هو نبيّا ؟ جزم الفخر الرازي بنبوته[١] ، وقال ابن حجر « وهذا مرويٌّ عن عبد الله بن عمرو وعليه ظاهر القرآن »[٢] ومن الذين نفوا نبوته عليُّ بن أبي طالب[٣] .

تبع :

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ «سورة الدخان/٣٧» وقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ، وأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ « سورة ق/١٢ - ١٤ » فهل كان نبيّا مرسلا إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله ؟ الله أعلم بذلك .

الأفضل التوقف في أمر ذي القرنين وتُبّع :

والأفضل أن يتوقف في اثبات النبوة لهذين ، لأنّه صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال : « ما أدري أتُبّع نبيّا أم لا ، وما أدري ذا القرنين نبيا أم لا »[٤] . فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري فنحن أحرى بأن لا ندري .

الخضر

الخضر هو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى ليطلب منه علما ، وقد حدثنا الله خبرهما في سعورة الكهف .

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه[٥] :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ،

---

(١) فتح الباري ٣٨٢/٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هذا الأثر أخرجه الحاكم عن علي وقال سنده صحيح انظر فتح الباري (٣٨٢/٦) .

(٤) رواه الحاكم والبيهقي (انظر صحيح الجامع الصغير (١٢١/٥) .

(٥) ذكر هذه الوجوه ابن كثير في البداية والنهاية (٣٢٦/١) .

وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ « سورة الكهف/٦٥ » ، والأظهر أنَّ هذه الرحمة هي رحمة النبوة ، وهذا العلم هو ما يوحى إليه به من قبل الوحي .

الثاني : قول موسى له : ﴿ هَلْ اتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟ قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ، قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَاللّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، قَالَ : فَإِنْ آتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ « سورة الكهف/٦٦ ـ ٧٠ » فلوكان غير نبيّ لم يكن معصوما ، ولم يكن لموسى وهو نبيٌّ عظيم ، ورسول كريم ، وواجب العصمة ـ كبير رغبة ، ولا عظيم طلبة في علم وَليّ غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه ، والتفتيش عليه ، ولو أنَّه يمضي حقبا من الزمان ، قيل ثمانين سنة ، ثمَّ لما اجتمع به ، تواضع له ، وعظّمه ، واتبعه في صورة مستفيد منه ، دلّ على أنه نبيٌّ مثله ، يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خصّ من العلوم اللدنيّة والأسرار النبويَّة بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم ، نبيّ بني إسرائيل الكريم .

الثالث : أنّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام ، وهذا دليل مستقلٌ على نبُّوته ، وبرهان ظاهر على عصمته[1] ، لأنَّ الولي لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده ، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق ، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علما منه بأنّه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر لشدّة محبتهما له ، فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دلّ ذلك على نبوته وأنّه مؤ يد من الله بعصمته .

---

(١) ضلَّ أقوام من هذه الأمّة إذ ينتهكون الحرمات ، ويرتكبون المنهيات ، فإذا أنكر عليهم منكر ، قالوا : حقيقة الأمر الخافية غير المظهرة البائنة ، ويحتجون على ذلك بقصّة الخضر ، وإفساده للسفينة ، وقتله للغلام ، وهذا ضلال كبير ، يفتح باب الشرّ ولا يستطاع اغلاقه بعد ذلك ، والقول بنبوَّة الخضر يغلق هذا الباب ، ثمَّ ليس لأحد من هذه الأمّة أن يخالف الشريعة الاسلامية ، فالحلال ما أحلّه الله ، والحرام ما حرّمه الله ، فمن رام خلاف الشريعة عوقب معاقبة المخالف ، وإن زعم ما زعم .

الرابع : أنّه لمّا فسّر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ، ووضح له عن حقيقة أمره وجلاّه ، قال بعد ذلك كلّه : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُه عَنْ أَمْرِي﴾ « سورة الكهف/٨٢ » يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرت به ، وأوحى إليّ فيه[1] .

الكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل

والكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٠٥ » ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٢٣ » وقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٤١ » ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٦٠ » ، ومن المعروف أنَّ كلَّ أمَّةٍ كذَّبت رسولها ، إلاّ أن التكذيب برسول واحد يعدّ تكذيباً بالرسل كلّهم ، ذلك أنَّ الرسل حملة رسالة واحدة ،

---

(١) ذهب جمع كثير من العلماء إلى أنَّ الخضر حيّ لم يمت ، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة ، وقد فتح القول بحياته بابا للخرافة والدجل ، فأخذ كثير من الناس يزعم أنّهم قابلوا الخضر ، وأنّه وصّاهم بوصايا ، وأمرهم بأوامر ، ويروون في ذلك حكايات غريبة ، وأخبارا يأباها العقل السليم .

وقد ذهب إلى تضعيف هذه الأخبار جمع من كبار المحدثين منهم البخاريُّ ، وابن دحية ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلاني ، وأقوى ما يردُّ به على هؤلاء القائلين بحياته أنّه لم يصح في ذلك حديث ، وأنّه لو كان حيّا لكان فرض عليه أن يأتي إلى الرسول ﷺ ويتابعه وينصره ، فقد أخذ الله العهد على الأنبياء من قبل بالإيمان بمحمد ونصرته إذا أدركهم زمانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « سورة آل عمران/٨١ » وقد أخبر الرسول ﷺ أنّه لو كان موسى حيّا ما وسعه إلا اتباعه ، وقد سأل إبراهيم الحربي أحمد بن حنبل عن تعمير الخضر والياس وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما ، فقال أحمد : من أحال على غائب لم ينصف منه ، وما ألقى هذا إلا الشيطان . (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٣٧/٤) .

وسئل البخاري عن الخضر والياس : هل هما في الأحياء ؟ فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبيُّ ﷺ : « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد » (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٣٧/٤) .

وقد أطال جماعة من محققي العلماء في إيراد الأدلة المبطلة لهذه الخرافة منهم ابن كثير في البداية والنهاية « ٣٢٦/١ » والشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان « ١٨٤/٤ » وقد ألف ابن حجر العسقلاني رسالة في ذلك سمّاها : الزهر النضر في نبأ الخضر ، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيريّة ١٩٥/٢ .

ودعاة دين واحد ، ومرسلهم واحد ، فهم وحدة يبشر المتقدم منهم بالمتأخر ، ويصدق المتأخر المتقدم .

ومن هنا كان الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض كفرا بهم جميعا ، وقد وسم الله من هذا حاله بالكفر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ، وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ « سورة النساء/ ١٥٠ - ١٥١ » وقد أمرنا الله بعدم التفريق بين الرسل والإيمان بهم جميعا ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ « سورة البقرة/١٣٦ » ومن سار على هذا النهج فقد اهتدى ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ « سورة البقرة/١٣٧ » والذي يخالفه فقد ضل وغوى ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ « سورة البقرة/١٣٧ » .

وقد مدح الله رسول هذه الأمّة والمؤمنين الذين تابعوه لايمانهم ولعدم تفريقهم بين الرسل ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ « سورة البقرة/٢٨٥ » .

ووعد الذين لم يفرقوا بين الرسل بالمثوبة والأجر الكريم ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ « سورة النساء/١٥٢ » .

وقد ذمّ الله أهل الكتاب لايمانهم ببعض الرسل وكفرهم ببعض ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ ﴾ « سورة البقرة/٩١ » .

فاليهود لا يؤمنون بعيسى ولا بمحمد ، والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ .

لا نثبت النبوة لأحد إلّا بدليل

يذكر علماء التفسير والسير أسماء كثير من الأنبياء نقلا عن بني إسرائيل ، أو اعتمادا على أقوال لم تثبت صحتها ، فإن خالفت هذه النقول شيئا مما ثبت عندنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ رفضناها ، كقول الذين قالوا : « إنَّ الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى ، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين بعد عيسى »[1] .

نردّ هذا كلّه ، لأنَّه ثبت في الحديث الصحيح أنّه ليس بين عيسى بن مريم وبين رسولنا صلوات الله وسلامه عليهما نبيٌّ[2]، فالرسل المذكورون في آية سورة يس إمّا رسل بعثوا قبل عيسى وهذا هو الراجح ، أو هم - كما يقول بعض المفسرين - مبعثون من قبل عيسى وهذا بعيد ، لأن الله أخبر أنّه مرسلهم ، والرسول عند الاطلاق ينصرف إلى الاصطلاح المعروف ، وما ورد من أنَّ خالد بن سنان نبي عربي ضيعه قومه فهو حديث لا يصحُّ ، وهو مخالف لحديث صحيح أخبر الرسول ﷺ فيه أنَّ عدد الأنبياء الذين من العرب أربعة[3] .

أما ما ورد عن بني إسرائيل من أخبار بتسمية بعض الأنبياء مما لا دليل عليه من الكتاب والسنة فلا نكـذّبـه ولا نصدّق به لأنَّ خبرهم يحتمل الصدق والكذب .

---

(١) فتح الباري « ٦/٤٨٩ »

(٢) حديث صحيح رواه البخاري وغيره انظر فتح الباري (٤/٤٧٧) .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

الفصل الثاني

حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ إلى الرُّسُلِ وَالرِّسَالَاتِ

حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّسُلِ وَالرِّسَالَاتِ

تمهيد

إذا كان الناس في القديم يجادلون الرسل ، ويرفضون علومهم ، ويعرضون عنهم ـ فإن البشر اليوم في القرن العشرين حيث بلغت البشريّة ذروة التقدم المادي ، فغاصت في أعماق البحار ، وانطلقت بعيدا في أجواز الفضاء ، وفجرت الذرة ، وكشفت كثيرًا من القوى الكونية الكامنـة في هذا الوجود — أشـدُّ جدالاً للرسـل ، وأكثر رفضـاً لعلومهـم ، وأعظم إعراضـا عنهم ، وحال البشر اليوم من الرسل وتعاليمهم كحال الحمر المستنفرة حين ترى الأسد فتفرّ منه لا تلوي على شيء ، قال تعالى : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ** ﴾ « سورة المدثر/٤٩ ـ ٥١ » .

يأبى البشر اليوم ـ أكثر من قبل ـ التسليم للرسل وتعاليمهم اغترارا بعلومهم ، واستكبارا عن متابعة رجال عاشوا في عصور متقدمة على عصورهم ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ! فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ « سورة التغابن/٦ » .

واليوم ينفخ شياطين الإنس في عقول البشر يدعونهم إلى التمرد على الله وعلى شريعة الله ، ورفض تعاليم الرسل ، بحجة أنَّ في شريعة الله حجرا على عقولهم ، ووقفا لركب الحياة ، وتجميدا للحضارة والرقيّ ، وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل ، بل إنَّ بعض الدول تضع الإلحاد مبدأً دستوريا ، وهو الذي يسمى بالعلمانية ، وكثير من الدول التي

تتحكم في رقاب المسلمين تسير على هذا النهج ، وقد ترضى عوامّ الناس بأن تضع مادة في دستورها تقول : دين الدولة الإسلام ، ثمَّ تهدم هذه المادة بالموادّ السابقة واللاحقة ، والتشريعات التي تحكم العباد .

فهل صحيح أنَّ البشرية بلغت ـ اليوم ـ مبلغا يجعلها تستغني عن الرسل وتعاليم الرسل ؟ وهل أصبحت البشرية اليوم قادرة على أن تقود نفسها بعيدا عن منهج الرسل ؟

يكفي في الاجابة أن ننظر في حال تلك الدول التي نسميها متقدمة متحضرة كأمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين ـ لنعلم مدى الشقاء الذي يغشاهم ، نحن لا ننكر انَّهم بلغوا في التقدّم المادي شأوا بعيدا ، ولكنَّهم في الجانب الآخر الذي جاء الرسل وجاءَت تعاليمهم لاصلاحه انحدروا انحدارا بعيدا ، لا ينكر أحد أنَّ الهموم والأوجاع النفسية والعقد النفسية ـ اليوم ـ سمة العالم المتحضر ، الإنسان في العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته ، خسر نفسه ، ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون ، يتمردون على القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين ، أخذوا يرفضون حياتهم التي يعيشونها ، وأخذوا يتبعون كلّ ناعق من الشرق أو الغرب يلوّح لهم بفلسفة أو دروشة أو طريق يظنون فيه هناءَهم ، لقد تحوّل عالم الغرب إلى عالم تنخر الجريمة عظامه ، وتقوده الانحرافات والضياع ، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول الكبرى ، والخافي أعظم وأكثر من البادي ، إنَّ الذين يسمّون ـ اليوم ـ بالعالم المتحضر يخربون بيوتهم بأيديهم ، حضارتهم تقتلهم ، حضارتهم تفرز سموما تسري فيهم فتقتل الأفراد ، وتفرق المجتمعات ، الذين نسميهم اليوم بالعالم المتحضر كالطائر الجبّار الذي يريد أن يحلق في أجواز الفضاء بجناح واحد .

إننا بحاجة الى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا ، وإنارة نفوسنا ، وهداية عقولنا . .

نحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة ، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة .

نحن بحاجة الى الرسل كيلا ننحرف أو نزيغ فنقع في المستنقع الآسن

كلام قيّم لابن القيم

يقول ابن القيم مبينا حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم :

« ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ، وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلاّ من جهتهم ، ولا ينال رضا الله ألبتة إلاّ على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلاّ هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح ، الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك ، وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاءه به الرسول كهذه الحال ، بل أعظم ، ولكن لا يحسُّ بهذا إلاّ قلبٌ حيٌّ ، وما لجرح بميت إيلام ، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدى النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مستقلٍّ ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو فضل عظيم »[1] .

ابن تيمية يبين الحاجة إلى الرسل والرسالات

ومن جلى هذه المسألة وبينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

---

(١) زاد المعاد (١٥/١)

قال : « الرسالة ضرورية للعباد ، لا بدَّ لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات ، قال الله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ ﴾ « سورة الأنعام/ ١٢٢ » فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان ، وجعل له نورا يمشي به في الناس ، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات ».

وبين رحمة الله تعالى : «أن الله سمّى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فقدت الحياة ، قال الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » فذكر هنا أصلين ، وهما : الروح ، والنور ، فالروح الحياة ، والنور النور»، وبين رحمة الله تعالى : « أن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض ، وبالنّار التي يحصل بها النّور ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ، ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ « سورة الرعد/١٧ » .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله معقبا على الآية : « فشبه العلم بالماء المنزل من السماء ؛ لأنّ به حياة القلوب ، كما أنّ بالماء حياة الأبدان ، وشبّه القلوب بالأودية ، لأنّها محلّ العلم ، كما أنّ الأودية محلّ الماء ، فقلب يسع علما كثيرا ، وواد يسع ماءً كثيرا ، وقلب يسع علما قليلا ، وواد يسع ماءً قليلا ، وأخبر تعالى أنّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء ، وأنّه يذهب جفاءً ، أي : يرمى به ، ويخفى ، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر ،

وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات ، ثمَّ تذهب جفاءً ، ويستقر فيها الايمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس ، وقال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ فهذا المثل الآخر وهو الناري ، فالأوَّل للحياة ، والثاني للضياء . وبين رحمه الله أن لهذين المثالين نظيرا « وهما المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذانِهِم من الصواعق حَذَرَ الْمَوْتِ ، واللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ « سورة البقرة١٧ ـ ١٩ » .

وبعد أن بيَّن الشيخ رحمه الله وصف المؤمن ، قال : « وأمَّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حيّ ، وإن كانت حياته حياة بهيمية ، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان ، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، فإنَّ الله سبحانه ـ جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعا بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه ، وبيان حالهم بعد الوصول إليه » .

ثم بيَّن رحمه الله هذه الأصول التي أشار إليها هنا فقال : « فالأصل الأول يتضمن اثبات الصفات والتوحيد والقدر ، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه ، وهي القصص التي قصّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم .

والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة ، وبيان ما يحبّه الله وما يكرهه . والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر ، والجنّة والنار ؛ والثواب والعقاب .

ثم بيَّن أنَّ « على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر ، والسعادة والفلاح موقوفة عليها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل ، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها ، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث

الجملة ، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه ، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض ، وتنزيل الدواء عليه »[1] .

مقارنة بين حاجة الأبدان إلى علم الطب والأرواح والأبدان لعلوم الرسل

عقد ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم « مفتاح دار السعادة » مقارنة بيّن فيها أنَّ حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدَّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم ، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم ، قال : « حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية ، فوق حاجتهم إلى كلّ شيء ، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ، ألا ترى أنَّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة ، وأمَّا أهل البدو كلّهم ، وأهل الكفور كلّهم ، وعامّة بني آدم ـ لا يحتاجون إلى طبيب ، وهم أصحُّ أبدانا ، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ، ولعلّ أعمارهم متقاربة ، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم ، وأجتناب ما يضرهم ، وجعل لكلٍّ قوم عادة وعرفا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء ، حتى أنَّ كثيرا من أصول الطب إنّما أخذت من عوائد الناس ، وعرفهم وتجاربهم .

وأمّا الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختياريّة ، فمبناها على الوحي المحض ، والحاجة إلى التنفس فضلا عن الطعام ، والشراب ، لأنَّ غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن ، وتعطل الروح عنه ، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح ، والقلب جملة ، وهلاك الأبد ، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت ، فليس النَّاس قطّ إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ والقيام به ، والدعوة إليه . والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه ، وليس للعالم صلاح بدون

---

(١) النصوص السابقة من هذا المبحث منقولة من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٩/٩٣ ـ ٩٦ .

ذلك البتة ، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلّا بالعبور على هذا الجسم »[1] .

هل يمكن أن يستغني العقل عن الوحي

يزعم الناس في عالم اليوم أنّه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها ، ولذلك نراهم يسُنون القوانين ، ويحلُّون ويحرِّمون ، ويخططون ويوجهون ، ومستندهم في ذلك كلّه أنَّ عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه ، وترضى به أو ترفضه ، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم هذه « فالبراهمة ـ وهم طائفة من المجوس ـ زعموا أنَّ إرسال الرسل عبث ، لا يليق بالحكيم ، لاغناء العقل عن الرسل ، لأنَّ ما جاءت به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله ، وإن لم يأت به ، وإن كان مخالفا قبيحا ـ فإن احتاج إليه فعله وإلّا تركه »[2] .

ولا يجوز في مجال الحجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى انكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح ، « فإنّ الله قد فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح ، وركب في عقولهم إدراك ذلك ، والتمييز بين النوعين ، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر ، وركب في حواسهم إدراك ذلك ، والتمييز بين أنواعه .

والفطرة الأولى (وهي فطرته العباد على الفرق بين الحسن والقبيح) هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات ، وأما الفطرة الثانية (وهي فطرته للعباد على الفرق بين النافع والضار . .) فمشتركة بين أصناف الحيوان »[3] والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور :

الأول : أنَّ هناك أموراً هي مصلحة للانسان لا يستطيع الإنسان إدراكها

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٢)

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/٢٥٦

(٣) مفتاح دار السعادة ٢/١١٦ .

بمجرد عقله ، لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته ، « فمن أين للعقل معرفة الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته . . ؟ ، ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل محبته ، ورضاه ، وسخطه ، وكراهيته ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه ، وما أعدَّ لأوليائه ، وما أعدَّ لأعدائه ، ومقادير الثواب والعقاب ، وكيفيتهما ، ودرجاتهما ؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحدا من خلقه إلاّ من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل ، وبلغته عن الله ، وليس في العقل طريق إلى معرفته »[1] .

الثاني : أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الاجمال ، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع ، وإن أُدركت التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات وليس إدراكا كليّا شاملا « فالعقل يدرك حسن العدل ، وأما كون هذا الفعل المعين عدلا أو ظلما فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كلٍّ فعل وعقد »[2] .

الثالث : أن العقول قد تحار في الفعل الواحد ، فقد يكون الفعل مشتملا على مصلحة ومفسدة ، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته ، فيتوقف العقل في ذلك ، فتأتي الشرائع ببيان ذلك ، وتأمر براجح المصلحة ، وتنهى عن راجح المفسدة ، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره ، والعقل لا يدرك ذلك ، وتأتي الشرائع ببيانه ، فتأمر به من هو مصلحة له ، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقّه ، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر ، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل ، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة ، والمفسدة الراجحة »[3] .

وفي هذا يقول ابن تيمية : « الانبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ، ولم

---

(١) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢ .

(٢) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢ .

(٣) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢ .

يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول»[1] .

الرابع : ما يتوصل إليه العقل وإن كان صحيحا فإنه ليس إلا فرضيات ، قد تجرفها الآراء المتناقضة ، والمذاهب الملحدة .

ولو استطاعت البقاء فإنها ـ في غيبة الوحي ـ ستكون تخمينات شتى ، يلتبس فيها الحق بالباطل .

بطلان قول البراهمة

والبراهمة الذين يزعمون أنَّ العقل يغني عن الوحي لا نحتاج إلى إيراد الحجج لابطال قولهم ، وكل ما نفعله أن نوجه الأنظار إلى ما قادتهم إليه عقولهم التي زعموا أنهم يستغنون بها عن الوحي ، هذا زعيم من زعمائهم في القرن العشرين يقول مفاخرا :[2] « عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانا، لأني أعبد البقرة ، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع » . ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمّه البقرة على أمّه التي ولدته : « وأمّي البقرة تفضل أمّي الحقيقية من عدّة وجوه ، فالأمّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منّا خدمات طول العمر نظير هذا ، ولكنَّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما ، ولا تطلب منّا شيئا مقابل ذلك سوى الطعام العادي . . . » ومضى عابد البقر يقارن بين أمّه البقرة وأمّه الحقيقية موردا الحجج والبراهين على أفضلية أمّه البقرة على أمّه الحقيقية إلى أن قال : « إنَّ ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والاجلال ، وأنا أعدّ نفسي واحدا من هؤلاء الملايين » .

وقد قرأت منذ مدة في مجلة العربي التي تصدر في الكويت عن معبد فخم مكسوّ بالرخام الأبيض ترسل إليه الهدايا والألطاف ـ من شتى أنحاء الهند ، بقي

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣١٢/٢ .

(2) هو زعيم الهند غاندي ، انظر أقواله هذه في كتاب مقارنة الأديان ٣٢/٤ (نظرات في النبوة ص ٢٧)

أن تعلم أنَّ الآلهة التي تقدم لها القرابين وترسل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنّما هي الفئران .

هذه بعض إلترهات التي هدتهم إليها عقولهم التي زعموا أنَّ فيها غنية عن الوحي الإلهي .

مجالات العقل

إن الذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلما كبيرا ، ويبددون طاقة العقل في غير مجالها ، « إن للعقل اختصاصه وميدانه وطاقته ، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب ، وحالفه الشطط والتخبط ، وإذا أجريْ في غير ميدانه كبا وتعثر ، وإذا كلف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال .

إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول ، فيستخرج مكنوناته ، ويربط بين أسبابه وعلله ، ومقدماته ونتائجه ، فيكشف ويخترع ، ويتبحّر في العلوم النافعةَ في مختلف ميادين الحياة ، وتسير عجلة التقدم البشري إلى أمام .

أما إذا كلف النظر خارج اختصاصه أعني ما وراء الطبيعة فإنه يرجع بعد طول البحث والعناء بما لا يروي غليلا ولا يشفي عليلا ، بل يرجع بسخافات وشطحات »[1] .

موقع العقل من الوحي

يزعم كثير من الناس أنَّ الوحي يلغي العقل ويطمس نوره ، ويورثه البلادة والخمول ؛ وهذا زعم كاذب ، ليس له من الصحة نصيب ، فالوحي الإلهي وجّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه ، وحث الإنسان على استعمار هذه الارض ، واستثمارها ، وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها

---

(١) نظرات في النبوة ص ١٧ .

ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله تعالى ، فإن تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه ، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي ، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ .

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين ، فإذا حجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله ، كما أنَّ المبصر لا ينتفع بعينيه إذا عاش في ظلمة ، فإذا أشرقت الشمس وانتشر ضوءها انتفع بناظريه ، وكذلك أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾.« سورة الحج/٤٦ » .

الفصل الثالث

وَظَائِفُ الرُّسُلِ وَمُهِمَّاتُهُم

وظائف الرسل ومهماتهم

لقد بين لنا القرآن الكريم والسنة النبوية مهمّة الرسل ووظائفهم ، وسنحاول أن نبين ذلك فيما يأتي .

(١) البلاغ المبين

الرسل سفراء الله إلى عباده ، وحملة وحيه ، ومهمتهم الأولى هي ابلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عباد الله ﴿يَاأَيُّهَا الرسُول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ « سورة المائدة/٦٧ » ، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم خشية الناس وهو يبلغهم ما يخالف معتقداتهم ، ويأمرهم بما يستنكرونه ، وينهاهم عمّا ألفوه ، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاَّ اللهَ﴾ . « سورة الأحزاب/٣٩ » .

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ « سورة العنكبوت/٣٩ » ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ « سورة البقرة/١٥١ » . فإذا كان الموحى به ليس نصّا يتلى فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير .

ومن البلاغ أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده ، لأنّه أقدر من غيره على التعرف على معانيه ومراميه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه ، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ « سورة النحل/٤٤ » .

والبيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول ، فقد بين الرسول ـ ﷺ ـ أمورا كثيرة استشكلها أصحابه ، كما بين المراد من الظلم في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ « سورة الأنعام/٨٢» بين الرسول ـ ﷺ ـ أن المراد به الشرك ، لا ظلم النفس بالذنوب .

وكما بيّن الرسول ـ ﷺ ـ الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله .

وكما يكون البيان بالقول يكون بالفعل ، فقد كانت أفعال الرسول ـ ﷺ ـ في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بيانا لكثير من النصوص القرآنية .

وعندما يتولى الناس ، ويعرضون عن دعوة الرسل ، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوا فإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغ﴾ « سورة آل عمران/ ٢٠ » .

(٢) الدّعـوة إلى الله

لا تقف مهمّة الرسل عند بيان الحقّ وإبلاغه ، بل عليهم دعوة الناس إلى الأخذ بدعوتهم ، والاستجابة لها ، وتحقيقها في أنفسهم اعتقادا وقولا وعملا ، وهم في ذلك ينطلقون من منطلق واحد ، فهم يقولون للناس أنتم عباد الله ، والله ربكم وإلهكم ، والله أرسلنا لنعرفكم كيف تعبدونه ، ولأننا رسل الله مبعوثون من عنده فيجب عليكم أن تطيعونا وتتبعونا ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ « سورة النحل/٣٦ » . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ « سورة الأنبياء/٢٥ » . وكل رسول قال لقومه :﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ « سورة الشعراء/١٠٨ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٧٩ » . وقد بذل الرسل في سبيل دعـوة الناس إلى الله جهودا عظيمة ، وحسبك في هذا أن تقرأ سورة نوح لترى الجهد الذي بذله على مدار تسعمائة وخمسين عاما ، فقد دعاهم ليلا ونهارا ، سرّا وعلانية ، واستعمل أساليب الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وحاول أن يفتح عقولهم ، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات ، ولكنهم أعرضوا ، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ، واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُه إلاَّ خَسَاراً﴾ « سورة نوح/٢١ » .

مثال يوضح دور الرسل

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلا توضح دوره وتبين وظيفته ، ففي الحديث « إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجليَّ ،

يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك ، كمثل ملك اتخذ دارا ، ثمَّ بنى فيها بيتا ، ثمَّ جعل فيها مائدة ، ثمَّ بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنّة ، وأنت يا محمد رسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنّة ، ومن دخل الجنّة أكل ما فيها » رواه البخاري والترمذي[1] .

---

(١) صحيح الجامع (٣١٩/٢)

(٣) التبشير والإنذار

ودعوة الرسل إلى الله تقترن دائما بالتبشير والانذار ، ولأنَّ ارتباط الدعوة إلى الله بالتبشير والإنذار وثيق جدا فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ « سورة الكهف/٥٦ » وقد ضرب الرسول - ﷺ - لنفسه مثلا في هذا ، فقال : « مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قوما ، فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعينيَّ ، وإني أنا النذير العُريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذَّبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق » متفق عليه[١] .

وتبشير الرسل وانذارهم دنيوي وأخروي ، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ « سورة النحل/٩٧ » . ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ « سورة طـه/١٢٣ » ، ويعدونهم بالعزّ والتمكين والأمن ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ « سورة النور/٥٥ » .

---

(١) صحيح الجامع (٥/٢٠٥)

ويخوّفون العصاة بالشقاء الدنيوي ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ « سورة طـه/١٢٤ » ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ « سورة فصلت/١٣ » وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ « سورة النساء/١٣ » .

ويخوفون المجرمينَ والعصاة عذاب الله في الآخرة ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ، وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ « سورة النساء/١٤ » .

ومن يطالع دعوات الرسل يجد أنَّ دعوتهم قد اصطبغت بالتبشير والإنذار ، ويبدو أنَّ التبشير والانذار على النحو الذي جاءَت به الرسل هو مفتاح النفس الإنسانية ، فالنفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها ، ودفع الشرّ عنها ، فإذا بصّر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصّلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير ، وعندما تبيّن لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال فإنَّ النفوس تهرب من هذه الأعمال ، ونعيم الله المبشربه نعيم يستعذبه القلب ، وتلذُّه النفس ، ويهيم به الخيال ، اسمع الى قوله تعالى يصف نعيم المؤمنين في جنات النعيم ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ، وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ، إلاَّ قِيلاً سلاَماً سَلاَماً ، وأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ، وَفَاكِهَةٍ كَثيرةٍ ، لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ، وَفُرُشٍ مَرْفُوعةٍ ، إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ، عُرُباً أَتْرَاباً ، لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ « سورة الواقعة/١٥ - ٣٨ » .

وانظر الى عذاب الكفرة في دار الشقاء ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ، إِنَّهُمْ كَانُوا

قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ « سورة الواقعة/ ٤١ ـ ٤٥ » ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ « سورة الواقعة/٥١ ـ ٥٦ » .

وحسبك أن تطالع كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري وتقرأ منه على اخوانك ومن تدعوهم إلى الله ، ثمَّ انظر اثر هذا في نفسك وفي نفوس السامعين .

إن بعض الذين لم يفقهوا دعوة الإسلام يعيبون على دعاة الإسلام أخذهم بالانذار والتبشير ، ويقولون فلان واعظ ، ويعيبون عليهم عدم فلسفتهم للأمور التي يدعون إليها ، ويطالبون الدعاة بالكف عن طريقة الوعظ وتخويف النَّاس وترغيبهم ، وهؤلاء بحاجة إلى أن يراجعوا أنفسهم ، وينظروا في موقفهم هذا ، في ضوء نصوص القرآن وأحاديث الرسول التي تبين اسلوب الدعوة ، وتوضيح مهمة الرسل الكرام .

(٤) إصلاح النّفوس وتزكيتها

الله رحيم بعباده ، ومن رحمته أن يحيي نفوسهم بوحيه ، وينيرها بنوره ، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ « سورة الشورى/٥٢ » .

والله يخرج الناس بهذا الوحي الإلهي من الظلمات إلى النور ، ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإسلام والحق ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ « سورة البقرة/٢٥٧ » ، وقد أرسل اللّهُ رسلَه بهديه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ « سورة إبراهيم/٥ » وبدون هذا النور تعمى القلوب ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ « سورة الحج/٤٦ » وعماها ضلالها عن الحق ، وتركها لما ينفعها واقبالها على ما يضرها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُهُم وَلاَ يَضُرُّهُم﴾ « سورة الفرقان/٥٥ » .

واخراج الرسل الناس من الظلمات الى النور لا يتحقق إلّا بتعليمهم تعاليمَ ربهم وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته وتعريفهم بملائكته وكتبه ورسله وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، ودلالتهم على السبيل التي توصلهم إلى محبته ، وتعريفهم بعبادته ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِم ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ « سورة الجمعة/٢ » ﴿رَبَّنَا وَآبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ « سورة البقرة/١٢٩ » .

(٥) تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة

كان الناس في أول الخلق على الفطرة السليمة ، يعبدون الله وحده ، ولا يشركون به أحدا ، فلمّا تفرقوا واختلفوا أرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب، وينتشلوهم من الضلال، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ « سورة البقرة/٢١٣ » .

أي كان الناس أمّة واحدة على التوحيد والإيمان وعبادة الله فاختلفوا فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين .

وقد كان كلُّ رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم ويبينه لهم ويهديهم إليه ، وهذا أمر متفق عليه بين الرسل جميعا ، ثمّ كُلُّ رسول يقوم الانحراف الحادث في عصره ومصره ، فالانحراف عن الصراط المستقيم لا يحصره ضابط وهو يتمثل في أشكال مختلفة ، وكلٌّ رسول يعنى بتقويم الانحراف الموجود في عصره ، فنوح أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وكذلك إبراهيم ، وهود أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبّر فيها ، وصالح أنكر عليهم الافساد في الأرض واتباع المفسدين ، ولوط حارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه ، وشعيب قاوم في قومه جريمة التطفيف في المكيال والميزان ، وهكذا ، فكل هذه الجرائم وغيرها التي ارتكبتها الأمم خروج عن الصراط المستقيم وانحراف عنه ، والرّسل يبينون هذا الصراط ويحاربون الخروج عليه بأيِّ شكل من الأشكال كان .

(٦) إقامة الحجّة

لا أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى ، فالله جلّ وعلا أرسل الرسل وأنزل الكتب كي لا يبقى للناس حجّة في يوم القيامة ، ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ « سورة النساء/ ١٦٥ » ولو لم يرسل الله الرسل إلى الناس لجاءوا يوم القيامة يخاصمون الله ـ جلّ وعلا ـ ويقولون : كيف تعذبنا وتدخلنا النّار ، وأنت لم ترسل إلينا من يبلغنا مرادك منّا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ، فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ « سورة طه/ ١٣٤ » أي لو أهلكهم الله بعذاب جزاء كفرهم قبل أن يرسل إليهم رسولا لقالوا : هلا أرسلت إلينا رسولا كي نعرف مرادك ونتبع آياتك ونسير على النهج الذي تريد ؟

وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأوّلين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنّه بلغها رسالة ربّه ، وأقام عليها الحجّة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ « سورة النساء/ ٤١ ـ ٤٢ » .

وقال في آية أخرى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ « سورة النحل/ ٨٩ » .

ولذلك فإنّ الذين يرفضون اتّباع الرّسل ، ويعرضون عن هديهم ـ لا يملكون إلاّ الاعتراف بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ

قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ، وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ « سورة الأنبياء/١١ ـ ١٥ » .

وفي يوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب ، وقبل أن يلقوا في الجحيم يسألون عن ذنبهم فيعترفون ، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ، وَقَالُوا : لَوْكُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَاكُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ « سورة الملك/٨ ـ ١١ » .

وعندما يضجّون في النّار بعد أن يُحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة النار : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ « سورة المؤمن/٥٠ » .

(٧) سِيَاسَةُ الأُمَّة

الذين يستجيبون للرسل يُكَوِّنون جماعة وأمّة ، وهؤلاء يحتاجون إلى من يسوسهم ويقودهم ويدبر أمورهم ، والرُّسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم ، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ « سورة المائدة/٤٨ » .

ونادى ربُّ العزة داود قائلا : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ « سورة ص/٢٦ » وأنبياء بني إسرائيل كانوا يسوسون أمتهم بالتوراة ، وفي الحديث «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبيٌّ قام نبيٌّ» رواه البخاري ومسلم واحمد وابن ماجة[1] وقال الله عن التوراة ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ « سورة المائدة/٤٤ » .

فالرسل يحكمون بين الناس ، ويقودون الأمّة في السلم والحرب ، ويلون شؤون القضاء ، ويقومون على رعاية مصالح النَّاس ، وهم في كلّ ذلك عاملون بطاعة الله ، وطاعتهم في ذلك كلّه طاعة لله ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ « سورة النساء/ ٨٠ » .

ولن يصل العبد إلى نيل رضوان الله ومحبته إلا بهذه الطاعة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٤/١٩٠) .

تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ « سورة آل عمران/٣١ » .

ولذا فإنَّ شعار المسلم الذي يعلنه دائما السمع والطاعة ﴿إِنَّما كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّه وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ، « سورة النور/٥١ » .

الفصل الرابع

الوَحيُ

النبوة منحة إلهية[1]

النبوة منحة إلهية ، لا تنال بمجرد التشهي والرغبة ، ولا تنال بالمجاهدة والمعاناة ، وقد كَذَب الفلاسفة الذين زعموا أنّ النبوة تنال بمجرد الكسب بالجدّ والاجتهاد ، وتكلّف أنواع العبادات ، واقتحام أشقّ الطاعات ، والدأب في تهذيب النفوس ، وتنقية الخواطر ، وتطهير الأخلاق ، ورياضة النفس والبدن[2] .

وقد بيّن الله في أكثر من آية أنّ النبوة نعمة ربانية إلهية ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ « سورة مريم /٥٨ » وحكى الله قول يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ « سورة يوسف/٦ » ، وقال الله لموسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ « سورة الاعراف/١٤٤ » ، وقد طمع أميّة بن أبي الصلط في أن يكون نبيّ هذه الأمّة ، وقال الكثير من الشعر متوجها به إلى الله ، وداعيا إليه ، ولكنّه لم يحصل على مراده ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » ، ولذلك عندما اقْتُرِحَ أن يُخْتَار لأمر النبوة

---

(١) ذهبت المعتزلة إلى أن ارسال الرسل وانزال الكتب واجب على الله تعالى ، والحقّ أن ذلك تفضل من الله تعالى على عباده ، ورحمة بهم ، والقول بالوجوب يتجه إذا قلنا أوجبه هو تعالى على نفسه « انظر لوامع الأنوار البهية ٢/٢٥٦ ، ٢٥٨) .

(٢) لوامع الأنوار البهيّة (٢/٢٦٧) .

والرسالة أحد الرجلين العظيمين في مكة والطائف عروة بن مسعود الثقفي أو الوليد بن المغيرة ، أنكر الله ذلك القول ، وبين أنَّ هذا مستنكر ، فهو الإله العظيم الذي قسم بينهم أرزاقهم في الدنيا ، أفيجوز لهم أن يتدخلوا في تحديد المستحقِّ لرحمة النبوة والرسالة ؟ ﴿ **وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٌ ؟ ! أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ! نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . .** ﴾ « سورة الزخرف/ ٣١ ـ ٣٢ » وسنبين في هذا الفصل الطريق الذي يصبح به الذين اختارهم الله أنبياء .

طريق إعلام الله أنبياءه ورسله

سمى الله هذا الطريق وحيا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ « سورة النساء/١٦٣ » .

والوحي : الإعلام الخفيّ السريع مهما اختلفت أسبابه[1] ، فقد يكون بالإلهام كوحي الله إلى الحواريين : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ « سورة المائدة/١١١ » وكوحي الله لأمّ موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ « سورة القصص/٧ » ويأتي بمعنى الايماء والاشارة ، فقد سمّى القرآن إشارة زكريا إلى قومه وحيا ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ « سورة مريم/١١ » .

وأكثر ما وردت كلمة « وحي » في القرآن الكريم بمعنى إخبار واعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، بطريقة سرّية خفيّة ، غير معتادة للبشر .

---

(١) راجع فتح الباري ٩/١ ، المصباح المنير ٦٥١ ، ٦٥٢ .

مقامات وحي الله الى رسله

قال الله تعالى مبيِّنا هذه المقامات : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّه عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ « سورة الشورى / ٥١ » .

فالمقامات ثلاثة :

الأولى : الإلقاء في روع النبيّ الموحى إليه ، بحيث لا يمتري النبيّ في أنّ هذا الذي ألقى في قلبه من الله تعالى ، كما جاء في صحيح ابن حبّان عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « إنَّ روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب »[١] وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله ﴿ إلاّ وحيا ﴾الوحي في المنام[٢] .

رؤيا الأنبياء

وهذا الذي فسَّر به ابن الجوزي المقام الأوّل داخل في الوحي بلا شكّ ، فإنّ رؤ يا الأنبياء حقٌّ ، ولذلك فإنَّ خليل الرحمن إبراهيم بادر إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنّه يذبحه ، وعدّ هذه الرؤ يا أمرا إلهيا ، ، قال تعالى في إبراهيم وابنه اسماعيل : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ، قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/٢١٥) تفسير الآية (٥١) من سورة الشورى .

(٢) زاد المسير (٧/٢٩٧) .

أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ « سورة الصافات/١٠٢ ـ ١٠٥ » .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤ يا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤ يا إلا جاءت مثل فلق الصبح »[1] .

المقام الثاني : تكليم الله لرسله من وراء حجاب :

وذلك كما كلّم الله تعالى موسى عليه السلام ، وذكر الله ذلك في أكثر من موضع في كتابه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ « سورة الأعراف/١٤٣ » ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ، إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ « سورة طه/١١ ـ ١٤ » وممن كلّمه الله آدم عليه السلام ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِم . . . . ﴾ « سورة البقرة/٣٣ » وكلّم الله عبده ورسوله محمدا ﷺ عندما عرج به إلى السماء .

المقام الثالث : الوحي إلى الرسول بواسطة الملك :

وهذا هو الذي عناه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ « سورة الشورى/٥١ » وهذا الرسول هو جبريل ، وقد يكون غيره وذلك في أحوال قليلة[2] .

---

(١) جامع الأصول ٣٧/١٢ .

(٢) راجع في هذا كتابنا : عالم الملائكة ص ٤٠ .

صفة مجيء الملك إلى الرسول

بالتأمل في النصوص في هذا الموضوع نجد أنّ للملك ثلاثة أحوال[1] :

الأول : أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها ، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلا مرتين .

الثاني : أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ، فيذهب عنه وقد وعى عنه الرسول ﷺ ما قال .

الثالث : أن يتمثل له الملك رجلا فيكلّمه ويخاطبه ويعي عنه قوله ، وهذه أخف الأحوال على الرسول ﷺ ، وقد حدث هذا من جبريل في اللقاء الأول عندما فجأه في غار حراء .

بشائر الوحي

كان الرسول ﷺ قبل معاينته للملك ، يرى ضوءاً، ويسمع صوتا ، ولكنه لا يرى الملك الذي يحدث الضوء ، ولا يرى مخاطبه والهاتف به ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : « مكث رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة ،

---

(١) راجع : المصدر السابق .

يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً ، وثمان سنين يوحى إليه ، وأقام بالمدينة عشرا »[1] .

قال النووي : « يسمع الصوت ويرى الضوء » ، قال القاضي : « أي صوت الهاتف من الملائكة ، ويرى الضوء أي نور الملائكة ، ونور آيات الله ، حتى رأى الملك بعينيه ، وشافهه بوحي الله »[2] .

أثر الملك في الرسول

من المزاعم التي يدعيها المكذبون بالرسل أن ما كان يصيب الرسول ﷺ إنّما هو نوع من الصرع ، أو اتصال من الشياطين به ، وكذبوا في دعواهم ، فالأمران مختلفان ، فالذي يصيبه الصرع يصفرُّ لونه ، ويخفُّ وزنه ، ويفقد اتزانه ، وكذلك الذي يصيبه الشيطان ، وقد يتكلم الشيطان على لسانه ، ويخاطب الحاضرين ، وعندما يفيق من غيبوبته لا يدري ولا يذكر شيئا ممّا خاطب به الشيطان الحاضرين على لسانه ، أمّا الرسول ﷺ فإنّ اتصال الملك به نماء في جسده ، واشراق في وجهه ، ثمَّ إن الجالسين لا يسمعون كلاما ، إنما يسمعون دويّا كدويّ النحل عند رأسه[3] ، ويقوم الرسول ﷺ بعد ذلك وقد وعى كلّ ما أخبر به الملك ، فيكون هو الذي يخبر أصحابه بما أوحي إليه .

فقد أخبرتنا عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ أنَّ الرسول ﷺ كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا[4] .

وأخبرتنا أنَّ ناقته ـ عندما كان يوحى إليه وهو فوقها ـ فيضرب حزامها وتكاد

(١) انظر النووي على مسلم (١٠٤/١٥) ، وهذا الذي ذكره ابن عباس خلاف المحفوظ في مقدار المدة التي كان يوحى إليه فيها بمكة ، فالمحفوظ انه أوحي اليه في سنّ الأربعين وهاجر وعمره ثلاث وخمسون سنة ، فتكون المدة ثلاث عشرة سنة .

(٢) النووي على مسلم ١٠٤/١٥ .

(٣) رواه الترمذي (انظر جامع الأصول ٤١/١٢) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب بدو الوحي (انظر فتح الباري ١٨/١) .

تبرك به من ثقله فوقها[1] ويذكر أحد الصحابة أنَّ فخذه كانت تحت فخذ النبي ﷺ فأنزل إليه ، فكادت فخذ النبي ﷺ حين الإنزال إليه تـرض فخـذ الصحابي[2] .
وهذا يعلى بن أميّة يحدثنا عن مشاهدة تنزّل الوحي على الرسول ﷺ وقد كان يتمنى قبل ذلك أن يراه في تلك الحال ، قال : « فأدخلت فإذا هو محمّر الوجه ، يغطُّ كذلك ساعة ، ثمَّ سُرِّي عنه »[3] .

---

(١) أشار الى هذا البيهقي في الدلائل عن عائشة (انظر فتح الباري ٢١/١) .
(٢) رواه البخاري ، صلاة ١٢ ، جهاد ٣١ ، والنسائي جهاد ٤ وأحمد (١٨٤/٥) .
(٣) حديث يعلى في البخاري وغيره انظر صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن (فتح الباري ٩/٩) .

الفصل الخامس

صِفَاتُ الرُّسُل

صِفَاتُ الرّسُل

البشريّة

شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم ، ﴿ قُلْ إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ « سورة الكهف/١١٠ » .

أهلية البشر لتحمّل الرسالة

الذين يستعظمون ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمّل الرسالة لا يقدرون الإنسان قدره ، فالإنسان مؤهل لتحمّل الأمانة العظمى ، أمانة الله التي أشفقت السموات والارض والجبال من حملها ، ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (سورة الأحزاب/٧٢) .

والذين استعظموا اختيار الله البشر رسلاً نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان ، نظروا إليه على أنه جسد يأكل ويشرب وينام ، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته ﴿ وَقَالُوا : مَـا لِـهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ « سورة الفرقان/٧ » ولم ينظروا إلى جوهر الإنسان ، وهو تلك الروح التي هي نفخة من روح الله ، ﴿ فَإذَا سَوَّيْتُه ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ « سورة الحجر/٢٩ » . وبهذه الروح تميز الإنسان ، وصار إنسانا ، واستخلف في الأرض ، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته ، فلا عجب أن يختار الله واحدا من هذا الجنس ، صاحب استعداد للتلقي ، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلّما غام عليهم الطريق ، وما

يقدم به إليهم العون كلّما كانوا بحاجة إلى العون[1] ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ « سورة إبراهيم/١١ » .

ثمَّ إنَّ الرسل يُعدّون إعدادا خاصًا لتحمُّل النبوّة والرسالة ويصنعون صنعا فريدا ﴿ واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي ﴾ (سورة طه /٤١ » ، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ ، كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ « سورة الضحى/٦ ـ ٨ » وقد زكّاه وطهّره وأذهب عنه رجس الشيطان وأخرج منه حظّ الشيطان مذ كان صغيرا ، فعن أنس أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظّ الشيطان منك ، ثمَّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأمه ، وأعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه[2] ، يعني ظئره ، فقالوا : إنَّ محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون ، قال أنس : فكنت أرى أثر المخيط في صدره » رواه مسلم[3] .

وحدث قريب من هذا عندما جاءه جبريل يهيئه للرحلة الكبرى للعروج به إلى السموات العلا ، ففي حديث الإسراء : « فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري ، ثمَّ غسله بماء زمزم ، ثمَّ جاء بطست ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ، ثمَّ أطبقه » متفق عليه[4] .

لِمَ لَمْ يكن الرسل ملائكة ؟

لقد كثر اعتراض أعداء الرسل على بعثة الرسل من البشر ، وكان هذا الأمر من أعظم ما صدَّ الناس عن الإيمان ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى

---

(١) في ظلال القرآن ٢٥٥٢/١٩ .

(٢) أمّه من الرضاع وهي حليمة السعدية .

(٣) مشكاة المصابيح (١٥٢/٣) .

(٤) صحيح الجامع الصغير (٨١/٤) .

إلاّ أنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ « سورة الإسراء/٩٤ » وعدوا اتباع الرسل بسبب كونهم بشرا فيما جاءوا به من عقائد وشرائع أمرا قبيحا ، وعدُّوه خسرانا مبينا ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ « سورة المؤمنون/٣٤ » ، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ؟ إِنّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ « سورة القمر/٢٤ » وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم ، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولا من الملائكة ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لقاءَنا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ « سورة الفرقان/ ٢١ » ، « وَقَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ ملك فَيَكُون معهُ نَذِيراً ﴾ « سورة الفرقان/٧ » .

وعندما نتأمّل النصوص القرآنية يمكننا أن نردّ على هذه الشبهة من وجوه :

الأول : أن الله اختارهم بشرا لا ملائكة لأنّه أعظم في الابتلاء والاختبار ، ففي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم في صحيحه : « إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك »[1] .

الثاني : أن في هذا إكراما لمن سبقت لهم منه الحسنى ، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلا تكريم وتفضيل ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا . . . ﴾ « سورة مريم/٥٨ » .

الثالث : أنّ البشر أقدر على القيادة والتوجيه ، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة ، يقول المرحوم سيد قطب في هذا : « وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر ، واحد من البشر يحسّ بإحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم . . . ، ومن ثمّ يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري ص : ٢٨٣ .

قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنّه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق .

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة، لأنّه بشر مثلهم ، يتسامى بهم رويدا رويدا ، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أنَّ الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ، فيكون بشخصه ترجمة حيّة للعقيدة التي يحملها إليهم ، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ، ينقلونها سطرا سطرا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان »[1] .

الرابع : صعوبة رؤية الملائكة ، فالكفار عندما يقترحون رؤية الملائكة ، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة ـ لا يدركون طبيعة الملائكة ، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك .

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بسهل ، فالرسول ـ ﷺ ـ مع كونه أفضل الخلق ، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤاده ، وقد كان ﷺ يعاني من اتصال الوحي به شدّة ، ولذلك قال في الردّ عليهم ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ** ﴾ ، « سورة الفرقان/٢٢ » ، ذلك أنَّ الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب ، فلو قدّر أنّهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم .

فكان إرسال الرسل من البشر ضروريا كي يتمكنوا من مخاطبتهم ، والفقه عنهم ، والفهم منهم ، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة لما أمكنهم ذلك . ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً** ﴾ « سورة

---

(١) في ظلال القرآن ١٩/٢٥٥٣ .

الإسراء/٩٤/٩٥ » فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم رسولا من جنسهم ، أما وأن الذين يسكنون الأرض بشر فرحمة الله وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾. « سورة آل عمران/١٦٤ » .

واذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة والتلقي عنهم بيسر وسهولة فيقتضي هذا ـ لو شاء الله أن يرسل مَلكا رسولا إلى البشر ـ أن يجعله رجلا ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ « سورة الأنعام/٩ » فالله يخبر أنه « لو بعث رسولا ملكياً ، لكان على هيئة رجل ، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس الأمر عليهم »[١] .

والتباس الأمر عليهم بسبب كونه في صورة رجل ، فلا يستطيعون أن يتحققوا من كونه ملكا ، وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو ، بل إرسالهم من الملائكة على هذا النحو لا يحقق الغرض المطلوب ، لكون الرسول الملك لا يستطيع أن يحس بإحساس البشر وعواطفهم وانفعالاتهم وإن تشكل بأشكالهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٩/٣ .

مقتضى بشريّة الأنبياء والرسل

ومقتضى كونهم بشرا أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفكُّ عنها البشريّة ، فمن ذلك كونهم جسدا يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب ، ويحدثون كما يحدث البشر ، لأنَّ ذلك من لوازم الطعام والشراب ، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** ﴾ « سورة الأنبياء/٧ ـ ٨ » .

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر ، لهم آباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأخوال وخالات ، يتزوجون ويولد لهم ، ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** ﴾ « سورة الرعد/٣٨ » .

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض ، فهم ينامون ويقومون ، ويصحون ويمرضون ، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت ، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربّه : ﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ « سورة الشعراء/ ٧٩ ـ ٨١ » . وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾ « سورة الزمر/ ٣٠ » وقال مبينا أنَّ هذه سنته في الرسل كلهم : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ « سورة آل عمران/ ١٤٤ » وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: « كان بشرا من البشر : يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب المفرد ، وإسناد أحمد صحيح على شرط مسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم ٦٧١) .

وقد صحّ أنَّ الرسول ﷺ قال لأمّ سليم : « يا أم سليم ، أما تعلمين أني اشترطت على ربّي ، فقلت : إنّما أنا بشر ؛ أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيّما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها طهورا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة »[1].

تعرض الأنبياء للبلاء

ومن مقتضى بشرية الرسل أنّهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر ، فقد يسجنون كما سجن يوسف ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ « سورة يوسف/٣٣ » وذكر الله أنه ﴿ لَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ « سورة يوسف/٤٢ » وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يدمونهم ، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه ، وكسروا رباعيته ، وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق الى الشام ، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ، وقد يقتلونهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ « سورة البقرة/٨٧ » وقد يصابون بالأمراض ، كما ابتلى الله نبيّه أيوب فصبر ، وقد صحَّ عن الرسول ﷺ : « أنَّ نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه . . »[2] . وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله ، وكان ذا مال وولد كثير ، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ «سورة الأنبياء/٨٣ ـ ٨٤»

والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب ، بل هم أشدُّ الناس بلاءً ، فعن الصعب ابن سعد عن أبيه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : الأنبياء ، ثمَّ الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٨٤) .

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده ، وأبو نعيم في الحلية ، والضياء في المختارة ، وابن حبان في صحيحه (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٧)

حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة »[1] .

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعك ، فوضع يده على الرسول ﷺ ، فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف ، فقال : يا رسول الله ، ما أشدها عليك ! قال : « إنا كذلك ، يضعف علينا البلاء ، ويضعف لنا الأجر » ، قلت : يا رسول الله ، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياء ، ثمَّ الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى ما يجد إلا العباءة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء »[2] [3] .

اشتغال الأنبياء بأعمال البشر

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر ، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة ، قبل البعثة ، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم ، فقد روى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنّا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث[4] ، وأنَّ رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالأسود منه فإنّه أطيبه » ، قالوا : أكنت ترعى الغنم ؟ قال : « وهل من نبي إلا وقد رعاها » رواه البخاري في صحيحه[5] ، ومن الأنبياء الذين نصَّ القرآن على أنّهم رعوا الغنم نبيّ الله موسى عليه السلام ، فقد عمل في ذلك عدّة سنوات ، فقد قال له العبد الصالح : ﴿ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ احْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُمِنَ الصَّالِحينَ ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْن قَضَيْتُ فَلَا عُدْوانَ عَلَيَّ ،

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وأحمد ، وابن ماجة وغيرهم (سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٤٣) .

(٢) اخرجه ابن ماجة ، وابن سعد والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الشيخ ناصر وهو كما قالا (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٤٤) .

(٣) إذا كان هذا حال الأنبياء فينبغي للصالحين أن يعتبروا بذلك ولا يظنون بالله غير الحقّ إذا أصابهم البلاء ، وعلى الذين يرمون الصالحين بالتهم الباطلة لأنّهم أصيبوا بالبلاء أن يقصروا عن غيهم .

(٤) الكباث : ثمر الأراك ، ويقال ذلك للنضيج منه .

(٥) انظر فتح الباري (٤٣٨/٦) .

والله عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ « سورة القصص/٢٧ ـ ٢٨ » قال ابن حجر : والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع ، وتعتاد قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[1].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام ، فقد كان حدّادا يصنع الدروع ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ « سورة الأنبياء/ ٨٠ » ، كان حدادا ، وفي نفس الوقت كان ملكا ، وكان يأكل مما تصنعه يداه .

ونبيّ الله زكريا كان يعمل نجّارا[2] .

ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية

ومقتضى كونهم بشرا أنهم ليسوا بآلهة ، وليس فيهم من صفات الألوهّية شيء ، ولذلك فإنّ الرسل يتبرءون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدعون شيئا من صفات الله تعالى ، قال تعالى مبينا براءة عيسى مما نسب إليه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ « سورة المائدة/١١٦ ـ ١١٧ » .

هذه مقالة عيسى في الموقف الجامع في يوم الحشر الأكبر ، وهي مقولة صدق تنفي تلك الأكاذيب والترهات التي وصف بها النصارى عبد الله ورسوله عيسى فطائفة قالت : الله هو المسيح بن مريم حلّ في بطن مريم ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ « سورة المائدة/٧٢ » وأخرى قالت هو ثالث

---

(١) فتح الباري (٦/٤٣٩) .

(٢) ثبت ذلك في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه (انظر مشكاة المصابيح ٣/١١٧) .

ثلاثة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾«سورة المائدة/٧٣» وطائفة ثالثة قالوا هو ابن الله تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . . ﴾ « سورة مريم/٨٨ ـ ٨٩ » لقد غلا النصارى في عيسى غلوّاً عظيما ، وهم بمقالتهم الغالية هذه يَسبُّون الله أعظم سبّ وأقبحه ، فهم يزعمون : « أنّ ربَّ العالمين نزل عن كرسي عظمته ، فالتحم ببطن أنثى ، وأقام هناك مدةً من الزمان ، بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء ، تحت ملتقى الأعكان ، ثمَّ خرج صبيا رضيعا يشبُّ شيئا فشيئا ، ويبكي ، ويأكل ، ويشرب ، ويبول ، ويتقلب مع الصبيان ، ثمَّ أودع المكتب بين صبيان اليهود ، يتعلم ما ينبغي للإنسان ، هذا وقد قطعت منه القلفة حين الختان ، ثمَّ جعل اليهود يطردونه من مكان إلى مكان، ثمَّ قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذلّ والهوان ، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجا من أقبح التيجان ، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان ، ثمَّ ساقوه إلى خشبة الصلب مصفوعا مبصوقا في وجهه ، وهم خلفه وأمامه وعن شمائله والأيمان ، ثمَّ أركبوه ذلك المركب الذي تقشعرُّ منه القلوب مع الأبدان ، ثمَّ شدّت بالحبال يده مع الرجلان ، ثمَّ خالطهما تلك المسامير ، التي تكسر العظام ، وتمزق اللحمان ، وهو يستغيث ، ويقول : ارحموني ، فلا يرحمه منهم إنسان ، هذا وهو مدبر العالم العلوي والسفلي ، الذي يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ، ثمَّ مات ودفن في التراب تحت صم الجنادل والصوّان ، ثمَّ قام من القبر وصعد الى عرشه وملكه بعد أن كان ما كان »[1].

فأيّ سبّ أعظم من هذا السبّ الذي نسبوه إلى الباري جل وعلا ! وأي ضلال أعظم من هذا الضلال ! .

الكمال البشري

لا شكَّ أن البشر يتفاوتون فيما بينهم تفاوتا كبيرا في الخَلْق والخُلُق ، والمواهب ، فمن البشر القبيح والجميل وبين ذلك ، ومنهم الأعمى والأعور

(١) هداية الحيارى (انظر الجامع الفريد ص ٤٧٩) .

والمبصر بعينيه ، والمبصرون يتفاوتون في جمال عيونهم وفي قوة ابصارهم ، ومنهم الأصم والسميع وبين ذلك ، ومنهم ساقط المروءة ومنهم ذو المروءة والهمة العالية .

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء والرسل يمثلون الكمال الانساني في أرقى صوره ، ذلك أنَّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه ، فلا بدَّ أن يختار أطهر البشر قلوبا ، وأزكاهم أخلاقا ، وأجودهم قريحة ، ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » .

الكمال في الخلقة الظاهرة

لقد حذرنا الله تعالى من ايذاء الرسول ـ ﷺ ـ كما آذى بنو اسرائيل موسى ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا . . ﴾ « سورة الأحزاب/٦٩ » .

وقد بين لنا رسولنا ﷺ أن ايذاء بني إسرائيل لموسى كان باتهامهم إياه بعيب خلقي في جسده ، ففي صحيح البخاري[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ موسى كان رجلاً حييًا ستّيرا لا يرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلاّ من عيب بجلده[(٢)] : إمّا برص ، وإمّا أدرة[(٣)] ، وإمّا آفة ، وإنَّ الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ، ثمَّ اغتسل ، فلمّا فرغ ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنَّ الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عريانا أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إنَّ بالحجر لندْباً من أثر ضربه ، ثلاثا أو أربعا أو خمسا ، فذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ، فَبَرَّأَهُ اللّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً ﴾ « سورة الأحزاب/٦٩ » .

---

(١) رواه البخاري انظر فتح البارى (٤٣٧/٦) .

(٢) هذا يوحى بأن اغتسال بني إسرائيل عراة كان جائزاً في شريعتهم .

(٣) الأدرة بضم الهمزة وسكون الدال .

قال ابن حجر العسقلاني معقبا على الحديث : « وفيه أن الأنبياء في خَلقهم وخُلُقهم ، على غاية الكمال ، وأن من نسب نبيًا إلى نقص في خلقته فقد آذاه ، ويخشى على فاعله الكفر »[1].

الصور الظاهرة مختلفة

ليس معنى كون الرسل أكمل الناس أجساما أنهم على صفة واحدة وصورة واحدة ، فالكمال الذي يدهش ويعجب متنوع وذلك من بديع صنع الواحد الأحد وكمال قدرته .

وقد وصف لنا الرسول ـ ﷺ ـ بعض الأنبياء والرسل ، يقول ﷺ : « ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضَرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة »[2] .

وقال في عيسى : « ليس بيني وبينه نبيٌّ ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل »[3] .

وقد وصف لنا الصحابة رسولنا ـ ﷺ ـ فمن ذلك قولهم : « كان أحسن الناس . . ربعة ، إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين ، أسيل الخدين ، شديد سواد الشعر ، أكحل العينين ، أهدب الأشفار ، إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها ، ليس له أخمص ، إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنّه سبيكة فضة »[4] .

الكمال في الأخلاق

لقد بلغ الأنبياء في هذا مبلغا عظيما ، وقد استحقوا أن يثني عليهم ربّ الكائنات فقد أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

---

(١) فتح البارى ٦/٤٣٨ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه (انظر فتح الباري ٦/٤٢٨) وشنوءة حيّ من اليمن ،

(٣) رواه أبو داود وأحمد (انظر صحيح الجامع ٥/٩٠) . وقوله « ممصرتين » الممصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة . راجع لسان العرب (٣/٤٩٣) مادة مصر .

(٤) رواه البيهقي انظر صحيح الجامع (٤/١٩٩)

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ، « سورة هود/٧٥ » .

وقالت ابنة العبد الصالح تصف موسى : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ « سورة القصص/٢٦ » .

واثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ « سورة مريم/٥٤ » .

وأثنى الله ـ جلَّ جلاله ، وتقدست أسماؤه ـ على خلق نبينا محمد ـ ﷺ ـ ثناءً عطرا ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ « سورة القلم/٤ » .

فقد وصف الله ـ سبحانه ـ خلق نبينا محمد ـ ﷺ ـ بأنّه عظيم ، وأكّد ذلك بثلاثة مؤكدات : أكدَّ ذلك بالإقسام عليه بنون والقلم وما يسطرون ، وتصديره بإنَّ ، وادخال اللام على الخبر .

ومن خلقه الكريم ـ ﷺ ـ الذي نوه الله به ما جبله عليه من الرحمة والرأفة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ « سورة التوبة/١٢٨ » .

وقد كان لهذه الأخلاق أثر كبير في هداية الناس وتربيتهم ، هذا صفوان بن أميّة يقول : لقد أعطاني رسول الله ـ ﷺ ـ ما أعطاني وإنه لأبغض خلق الله إليّ فما زال يعطيني حتى إنّه من أحبِّ الناس إليّ « رواه مسلم في صحيحه » .

وفي صحيح مسلم أنَّ رجلا سأل الرسول ﷺ فأعطاه قطيعا من الغنم بين جبلـين ، فجاء الرجل قومه وقال لهم : أسلموا فإنَّ محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

ولو لم يتصف الرسل بهذا الكمال الذي حباهم الله به لما انقاد الناس لهم ، ذلك أن الناس لا ينقادون عن رضا وطواعية لمن كثرت نقائصه ، وقلت فضائله

خير الناس نسبا

الرسل ذوو أنساب كريمة ، فجميع الرسل بعد نوح من ذريته ، وجميع الرسل بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابِ . .﴾ « سورة الحديد/٢٦ » .

ولذلك فإنَّ الله ـ سبحانه ـ يصطفي لرسالته من كان خيار قومه في النسب ، وفي الحديث الذي يرويه البخاريُّ ، يقول الرسول ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذي كنت منه »[١] .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي عن الرسول ، ﷺ : قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ الله ـ تعالى ـ خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثمَّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثمَّ جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا ، وخيركم نفساً »[٢] .

وفي صحيح مسلم وسنن النسائي : « إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من كنانة قريش ، واصطفى من قريش بني هاشم » .

أحرار بعيدون عن الرق

ومن صفات الكمال أنَّ الأنبياء لا يكونون أرقاء يقول السفاريني في هذا : « الرقُّ وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، والنبي يكون داعيا للناس آناء الليل وأطراف النهار ، والرقيق لا يتيسر له ذلك ، وأيضا الرقيّة وصف نقص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها ، وأن يكون إماما لهم وقدوة ، وهي أثر الكفر ، والأنبياء منزهون عن ذلك »[٣][٤] .

---

(١) رواه البخاري (فتح الباري ٦/٥٦٦)

(٢) رواه احمد والترمذي (صحيح الجامع ٢/٢٢)

(٣) لوامع الأنوار البهية ص ٢/٢٦٥ .

(٤) قد يعترض على هذا بأنّ رسول الله يوسف باعه الذين استنقذوه من البئر وبذلك أصبح عبدا ، والاجابة على ذلك أنَّ العبودية هنا كانت نوعا من الابتلاء والاّ فهو حرٌّ وقع عليه الظلم ، ولم تستمر هذه العبودية طويلا ، وأبدله الله بها ملكا .

المواهب والقدرات

الأنبياء أعطوا العقول الراجحة ، والذكاء الفذ ، واللسان المبين ، والبديهة الحاضرة ، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لا بدَّ منها لتحمل الرسالة ثم ابلاغها ومتابعة الذين تقبلوها بالتوجيه والتربية .

لقد كان الرسول - ﷺ - يحفظ ما يلقى إليه ولا ينسى منه كلمة ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ « سورة الأعلى/٦ » .

وقد كانوا يعرضون دين الله للمعارضين ويفحمونهم في معرض الحجاج ، وفي هذا المجال أسكت إبراهيم خصمه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ « سورة البقرة/٢٥٨ » وقال الله معقبا على محاججة إبراهيم لقومه : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ « سورة الأنعام/٨٣ » .

وموسى كان يجيب فرعون على البديهة حتى انقطع ، فانتقل إلى التهديد بالقوة . ﴿قَالَ فِرْعَونُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ! قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِين ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ « سورة الشعراء/ ٢٣ - ٢٩ » .

تحقيق العبودية

بينا الكمال الذي حبا الله به رسله في صورهم الظاهرة ، وأخلاقهم الباطنة ، والمواهب والسجايا التي أعطاهم إياها في ذوات أنفسهم ، وهناك نوع آخر من الكمال وفق الله رسله وأنبياءه لتحصيله ، وهو تحقيق العبودية لله في أنفسهم .

فكلّما كان الإنسان أكثر تحقيقا للعبوديّة لله تعالى ، كلّما كان أكثر رقيّا في سلّم الكمال الإنساني ، وكلما ابتعد عن تحقيق العبودية لله كلما هبط وانحدر .

والرسل حازوا السبق في هذا الميدان ، فقد كانت حياتهم انطلاقة جادة في

تحقيق هذه العبودية ، وهذا خاتم الرسل وسيد المرسلين يثني عليه ربّه في أشرف المقامات بالعبودية ، فيصفه بها في مقام الوحي ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ « سورة النجم/ ١٠ » وفي مقام إنزال الكتاب ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ « سورة الفرقان/ ١ » وفي مقام الدعوة ﴿وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ « سورة الجن/ ١٩ » وفي مقام الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ . .﴾ « سورة الإسراء/ ١ » وبهذه العبودية التامّة استحق صلوات الله وسلامه عليه التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ، ولذلك فإنّ المسيح عليه السلام يقول للناس إذا طلبوا منه الشفاعة بعد طلبها من الرسل من قبله ـ يقول . « اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » متفق عليه[١] .

واليك صورة من صور هذه العبودية ترويها لنا أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت رضي الله عنها وعن أبيها : « قلت يا رسول الله ، كُلْ ـ جعلني الله فداك ـ متكئا ، فإنّه أهون عليك ، فأحنى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ، وقال : بل آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » رواه البغوي في شرح السنة ، وابن سعد ، والامام أحمد في الزهد[٢] .

الذكورة

ومن الكمال الذي حباهم به أنه اختار جميع الرسل الذين أرسلهم من الرجال ، ولم يبعث الله رسولا من النساء يدلُّ على ذلك صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ « سورة الأنبياء/ ٧ » .

الحكمة من كون الرسل رجالا

كان الرسل من الرجال دون النساء لحكم يقتضيها المقام فمن ذلك :

(١) تخريج الطحاوية انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٧ .

(٢) انظر صحيح الجامع الصغير (١٢٢/١)

١ ـ أنَّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، ومخاطبة الرجال والنساء ، ومقابلة الناس في السرّ والعلانية ، والتنقل في فجاج الأرض ، ومواجهة المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم ، واعداد الجيوش وقيادتها ، والاصطلاء بنارها ، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء .

٢ ـ الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه ، فهو في أتباعه الآمر الناهي ، وهو فيهم الحاكم والقاضي ، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة لم يتمّ ذلك على الوجه الأكمل ، ولاستنكف أقوام من الاتباع والطاعة .

٣ ـ الذكورة أكمل كما بينا آنفا ، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ « سورة النساء/٣٤ » وأخبر الرسول ـ ﷺ ـ أنَّ النساء ناقصات عقل ودين .

٤ ـ المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات ، كالحيض والحمل والولادة والنفاس ، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع ، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية ، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها .

نبوّة النساء

ذهب بعض العلماء[1] إلى أنَّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة ، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم[2] .

والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم ، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها ويعدّون من النساء النبيات : حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية .

وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء ، قالوا نحن لا نخالف في ذلك ، فالرسالة للرجال ، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني ، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول ، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ، يعمل بها ، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين .

أدلتهم :

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء ، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى : **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** « سورة القصص/٧ » وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**

---

(١) يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبيّة (لوامع الأنوار البهيّة ٢/٢٦٦)

(٢) انظر فتح الباري ٦/٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٦/٤٧٣ ، وانظر لوامع الأنوار البهية ٢/٢٦٦ .

﴿ فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ، قَالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً . . . ﴾ « سورة مريم/١٧ - ١٨ » وخاطبتها الملائكة قائلة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . . . ﴾« سورة آل عمران/٤٢، ٤٣ ».

فأبو الحسن الأشعري يرى أنَّ كلَّ من جاءَه الملك عن الله - تعالى - بحكم من أمر أو نهي أو باعلام فهو نبي[1] ، وقد تحقق في أمِّ موسى ومريم شيء من هذا ، وفي غيرهما أيضا ، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن .

واستدلوا أيضا باصطفاء الله لمريم على العالمين ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ « سورة آل عمران/٤٢ » وبقوله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران »[2] .

قالوا : الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء .

الردّ عليهم

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لاثبات نبوة النساء ، والردُّ عليهم من وجوه :

الأوّل : أننا لا نسلّم لهم أنَّ النبيّ غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس ، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبيِّ والرسول في هذا ، وأنَّ الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق .

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في ارسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء ، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة .

الثاني : قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية . . إنّما وقع مناما ، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون مناما ، وهذا يقع لغير الأنبياء .

---

(١) فتح الباري ٦/٤٤٧ .

(٢) حديث متفق عليه (انظر مشكاة المصابيح ٣/١١٨)

الثالث : لا نسلم لهم قولهم أن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي ، ففي الحديث أن الله أرسل ملكا لرجل يزور أخا له في الله في قرية أخرى ، فسأله عن سبب زيارته له ، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله ، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه ، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة ، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ـ ﷺ ـ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه .[1] .

الرابع : أنَّ الرسول ـ ﷺ ـ توقف في نبوة ذي القرنين مع اخبار القرآن بأنَّ الله أوحى إليه ﴿**قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ، وإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنا**﴾ « سورة الكهف/٨٦ » .

الخامس : لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم ، فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء : ﴿**ثمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِن عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ « سورة فاطر/٣٢ » واصطفى آل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ومن آلهمَا من ليس بنبيٍّ جزما ﴿**إِنَّ اللَّه اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ « سورة آل عمران/٣٣ » .

السادس : لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة ، لأنّه يطلق لتمام الشيء ، وتناهيه في بابه ، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء ، وعلى ذلك فالكمال هنا كمال غير الأنبياء .

السابع : ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات[2] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة .

الثامن : ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاّ ما كان من مريم ابنة عمران[3] ، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية ،

---

(١) ارجع في هذه النصوص والنصوص المشابهة لها إلى الجزء الثاني من هذه السلسلة « عالم الملائكة الأبرار» .
(٢) الحديث أخرجه ابن مردويه ، انظر البداية والنهاية (٦١/٢)
(٣) رواه أحمد وأسناده جيد ، فتح الباري (٤٧٧/٦)

لأنَّ فاطمة ليست بنبيّة جزما ؛ وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها ، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة .

التاسع : وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والاخبار بفضلها ، قال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ﴾ « سورة المائدة/ ٧٥ » ، فلو كان هناك وصفا أعلى من ذلك لوصفها به ، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح اخبار بنبوة واحدة من النساء .

وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة ، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنّه نقل الاجماع على أنَّ مريم ليست نبيّة[1] ، ونسبه في « شرح المهذب » لجماعة ، وجاء عن الحسن البصري : ليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ[2] .

---

(١) الاجماع لا يتم بعد معرفة من خالف في ذلك من العلماء إلا أن يكون إجماعا سابقا على هذا الخلاف .

(٢) فتح الباري ٤٧١/٦ ، ٤٧٣ .

أُمورٌ تفَرّدَ بها الأَنبِيَاء دُونَ البَشَر

١ ـ الوحي

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ . « سورة الكهف/١١٠ » .

وهذا الوحي يقتضي عدة أمور يفارقون بها الناس ، فمن ذلك تكليم الله بعضهم واتصالهم ببعض الملائكة ، وتعريف الله لهم شيئا من الغيوب الماضية أو الآتية ، واطلاع الله لهم على شيء من عالم الغيب .

فمن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات العلا ، ورؤيته للملائكة والأنبياء ، واطلاعه على الجنّة والنار ، ومن ذلك رؤيته للمعذبين في قبورهم وسماعه تعذيبهم ، وفي الحديث : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر »[1] .

٢ ـ العصمة

وقد خصصنا لهذا الأمر فصلا مستقلّاً .

٣ ـ الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم

ومما اختصهم الله تعالى به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام ، فعن أنس في حديث الإسراء : « والنبيُّ نائمة عيناه ، ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي (صحيح الجامع الصغير ٥/٧٥)

ولا تنام قلوبهم » رواه البخاري في صحيحه[1] ، وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول ابن حجر[2] ، وقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ ، فقد صحّ عنه أنّه قال : « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » ، وقال ﷺ عن نفسه : « إنَّ عيني تنامان ولا ينام قلبي »[3] .

٤ ـ تخيير الأنبياء عند الموت

مما تفرد به الأنبياء أنّهم يخيَّرون بين الدنيا والآخرة ، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة»[4] ،وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة ، فسمعته يقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنّه خير . رواه البخاريّ في صحيحه[5] .

وقد سبق أن أوردنا حديث تخيير ملك الموت لموسى وضرب موسى لملك الموت وقلع عينه[6]

٥ ـ لا يقبر نبي إلا حيث يموت

ممّا خصَّ الله به الأنبياء بعد موتهم أمور :

الأوّل : أنّه لا يقبر نبيٌّ إلاّ في الموضع الذي مات فيه ، ففي الحديث : « لم يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت»[7] ولهذا فإنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ دفنوا الرسول ـ ﷺ ـ في حجرة عائشة حيث قبض .

---

(١) انظر فتح الباري ٥٧٩/٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه ابن سعد وابن حبان (انظر صحيح الجامع الصغير ٥٥/٣)

(٤) رواه البخاري ومسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣١٦/٢)

(٥) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٥٥/٨

(٦) انظر كتابنا عالم الملائكة من هذه السلسلة .

(٧) رواه الامام أحمد في مسنده بإسناد صحيح (انظر صحيح الجامع الصغير ٤٦/٥)

٦ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنَّ الأرض لا تأكل أجسادهم ، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى ، ففي الحديث « إنَّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[1] .

ويذكر أهل التاريخ قصة فيها عجب وغرابة ، روى ابن كثير في البداية والنهاية[2] عن يونس بن بكير قال: لما فتحنا تُسْتر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعبا فنسخه بالعربية ، فأنا أوّل رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد .

قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلّها ، لنعميه على الناس فلا ينبشونه[3] .

قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون .

قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال .

قلت : مذكم وجدتموه ؟ قال : قد مات منذ ثلاثمائة سنة .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره (انظر فتح الباري ٤٨٨/٦)

(٢) البداية والنهاية (٤٠/٢) .

(٣) وهذا يدلّ على فقه المسلمين في ذلك الوقت ، فإنّ اكرام الميت دفنه ، سواء أكان نبيا أم غير نبي ، وحفرهم القبور الكثيرة لتعميةُ أمره على الناس حتى لا ينبشوا قبره وفي ذلك إيذاء لهذا النبي الكريم ، وقد يتخذون قبره عيدا ، ويقيمون عليه مسجدا ويقصدونه بالدعاء والتبرّك كما يفعل كثير من الذين ضلوا عن سواء الصراط في كثير من ديار الإسلام .

قلت : ما تغير منه شيء ؟ قال : لا إلّا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا يبليها الأرض ، ولا تأكلها السباع .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية .

ويبدو أن هذا من أنبياء بني إسرائيل ، وقد ظنَّ الصحابة أنّه دانيال ، لأنّ دانيال أخذه ملك الفرس ، فأقام عنده مسجونا ، ويبدو أنّ تقدير الذين وجدوه لم يكن صوابا ، فإنّ دانيال كان قبل الإسلام بثمانمائة سنة ، فإن كان تقديرهم صوابا فليس بنبيّ لأنّه لا نبيّ بين عيسى ورسولنا محمد عليهما الصلاة والسلام ، فيكون عبدا صالحا ليس بنبي ، وكونه نبيّا أرجح ، لأنّ الذين تحفظ أجسادهم هم الأنبياء دون غيرهم ، ويرجح هذا أيضا ذلك الكتاب الذي وجد عند رأسه ، لا شكّ أنه كتاب نبيّ ، فالأمور الغيبيّة التي تضمنها لا تكون إلا وحيا سماويّا ، وترجيحنا لكونه من بني إسرائيل لأمرين :

الأول : ظن الصحابة أنّه دانيال ، ويكونون قد علموا ذلك من قرائن لم تذكر .

والثاني : الكتاب الذي وجد عند رأسه ، ويبدو أنه كان مكتوبا بالعبرانية ، لأنّ الذي ترجمه هو أبيّ بن كعب ، وقد كان قبل إسلامه يهوديا .

٧ ـ أحياء في قبورهم

صحَّ عن النبيّ ﷺ أنّ « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون »[١] ، وروي أيضاً أنّ الرسول ـ ﷺ ـ قال : « مررت على موسى ليلة أسري به عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره »[٢] .

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء : « وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي . . . ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي »[٣]

---

(١) رواه الجماعة عن أنس (انظر صحيح الجامع ٢/٤١٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل حديث رقم (١٦٤١) وانظر شرح النووي على مسلم (١٥/١٣٣)

(٣) انظر فتح الباري ٦/٤٨٧ .

الفصل السادس

عِصْمَةُ الرُّسُل

عصمة الرسل

هل الرسل معصومون عن الخطأ والمعصية ، وهل هي عصمة عامّة شاملة ؟ هذا ما سنحاول بيانه .

العصمة في التحمّل وفي التبليغ

اتفقت الأمّة على أنَّ الرسل معصومون في تحمّل الرسالة[1] ، فلا ينسون شيئا مما أوحاه الله إليهم إلاّ شيئا قد نُسخ ، وقد تكفل الله لرسوله - ﷺ - بأن يقرئه فلا ينسى شيئا مما أوحاه إليه ، إلا شيئا أراد الله أن ينسيه إيّاه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ « سورة الأعلى/ ٦ » وتكفل له بأن يجمعه في صدره : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ « سورة القيامة/١٦ - ١٨ » وهم معصومون في التبليغ ، فالرسل لا يكتمون شيئا ممّا أوحاه الله إليهم ، ذلك أن الكتمان خيانة ، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك ، قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ « سورة المائدة/ ٦٧ » ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير لما أوحاه الله فإن عقاب الله يحلّ بذلك الكاتم المغيّر ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ « سورة الحاقة/ ٤٤ - ٤٦ »

---

(١) نقل الاجماع على العصمة في هذا أكثر من واحد انظر : مجموع الفتاوى ٢٩١/١٠ ، ولوامع الأنوار البهيّة (٣٠٤/٢) .

ومن العصمة ألاَّ ينسوا شيئا مما أوحاه الله إليهم ، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي ، وعدم النسيان في التبليغ داخل في قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ « سورة الأعلى/٦ » ومما يدل على عصمته في التبليغ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ « سورة النجم/ ٣ - ٤ »

أمور لا تنافي العصمة

الأعراض البشريّة الجبلّية لا تنافي العصمة ، فإبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة عندما رأى أيدي ضيوفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم ، ولم يكن يعلم أنّهم ملائكة تشكلوا في صور البشر ﴿ فَلَمّا رأى أَيْدِيَهُم لاَ تَصِلُ إلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لاَ تَخَفْ ، إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ « سورة هود/ ٧٠ » .

وموسى وعد الخضر بأن يصبر في صحبته له ، فلا يسأله عن أمر يفعله العبد الصالح حتى يحدث له منه ذكرا ، ولكنه لم يتمالك نفسه ، إذ رأى تصرفات غريبة ، فكان في كل مرّة يسأل أو يعترض أو يوجه[1] ، وفي كل مرّة يذكّره العبد الصالح ويقول له : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ « سورة الكهف/ ٧٥ » وعندما كشف له عن سرّ أفعاله ، قال له : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْه صَبْراً ﴾ « سورة الكهف/ ٨٢ » .

وغضب موسى غضبا شديدا ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح وفي نسختها هدى ـ عندما عاد إلى قومه بعد أن تمّ ميقات ربه ، فوجدهم يعبدون العجل ، ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ، وَلاَ تَجْعَلْنِي

(١) كانت المرة الأولى من موسى نسيانا ، أمّا الثانية والثالثة فكان متعمدا .

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ « سورة الأعراف/ ١٥٠ » وفي الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة ، إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يلق الألواح ، فلمّا عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت »[١] .

نسيان آدم وجحوده

ومن ذلك نسيان آدم عليه السلام وجحوده فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « **لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من** ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كلٍّ منهم وبيصا من نور ، ثمَّ عرضهم على آدم ، فقال أي ربِّ مَنْ هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم **فأعجبه ما بين عينيه ، فقال : أي ربِّ من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر** الامم من ذريتك ، يقال له داود ، قال : ربِّ وكم عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أي ربِّ زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم ، جاءَه ملك الموت ، قال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ، قال : أولم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسي آدم ، فنسيت ذريته ، وخطىء آدم ، فخطئت ذريته »[٢] .

نبي يحرق قرية النمل

ومن ذلك ما وقع من نبي من الانبياء فقد غضب إذ قرصته نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فعاتبه الله على ذلك ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ : « نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثمَّ أمر ببيتها فأحرق بالنار ، فأوحى الله إليه : فهلاّ نملة واحدة » . رواه البخاري وأبو داود والنسائي[٣] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الأوسط ، بإسناد صحيح (انظر صحيح الجامع الصغير ٥/٨٧) .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم (البداية والنهاية ١/٨٧) .

(٣) صحيح الجامع ٥/٢٨ .

صلاة نبيّنا الظهر ركعتين نسيانا

ومن ذلك نسيان الرسول ـ ﷺ ـ في غير البلاغ وفي غير أمور التشريع ، فمن ذلك ما رواه ابن سيرين عن أبي هريرة قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ ، إحدى صلاتي العشيّ [١] ، فصلّى ركعتين ، ثمَّ سلَّم ، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنّه غضبان ، ووضع يده اليمنى على اليسرى ، وشبّك بين أصابعه ، ووضع خدّه الأيمن على ظهر كفّه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد ، فقالوا : قصرت الصلاة ، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه ، وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين ، فقال : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس ، ولم تقصر ، فقال : أكما يقول ذو اليدين ؟ فقالوا : نعم . فتقدم فصلّى ما ترك ، ثمَّ سلَّم ، ثمَّ كَبَّر ، وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثمَّ رفع رأسه وكبّر ، وسجد مثل سجوده أوْ أطول ، ثمَّ رفع رأسه وكبّر ، فربما سألوه ، ثمَّ سلَّم ، فيقول : أنبئت أنَّ عمران بن حصين ، قال : ثمَّ سلَّم » متفق عليه ، وليس لمسلم فيه وضع اليد على اليد ولا التشبيك .

وفي رواية ، قال : « بينما أنا أصلّي مع النبي ـ ﷺ ـ صلاة الظهر سلّم من ركعتين ، فقام رجل من بني سليم ، فقال : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت » وساق الحديث ، رواه أحمد ومسلم .

وهذا يدلُّ على أن القصة كانت بحضرته وبعد اسلامه .

وفي رواية متفق عليها لما قال : « لم أنس ولم تقصر ، قال : بلى ، قد نسيت » ، وهذا يدلُّ على أن ذا اليدين تكلّم بعدما علم عدم النسخ كلاما ليس بجواب سؤال [٢] .

وقد صرح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر ، ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « ولكنّي إنّما أنا بشر ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت

---

(١) قال الازهري : العشى عند العرب ما بين زوال الشمس وغروبها ، فيكون المراد بهما الظهر أو العصر ، (نيل الأوطار ٣/١١٥) ، وقد حصل الجزم بأنها الظهر في إحدى الروايات .

(٢) نص الحديث برواياته كما نقلناها مأخوذة من منتقي الأخبار للمجد ابن تيمية انظر شرحه نيل الأوطار ٣/١١٤ .

فذكروني »[1] قال هذا بعد نسيانه في احدى الصلوات .

أمّا الحديث الذي يروى بلفظ : « إني لا أنسى ، ولكن أنسَّى لأسنّ » فلا يجوز أن يعارض به الحديث السابق ، لأنَّ هذا الحديث ـ كما يقول ابن حجر ـ لا أصل له ، فإنّه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد[2] .

قد يخطئون في إصابة الحق في القضاء

الأنبياء والرسل يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع ، ويحكمون وفق ما يبدو لهم ، فهم لا يعلمون الغيب ، وقد يخطئون في إصابة الحق ، فمن ذلك عدم اصابة نبي الله داود في الحكم ، وتوفيق الله لابنه سليمان في تلك المسألة .

فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول : « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاءَ الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها : إنّما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنّما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا به على سليمان بن داود ، فأخبرتاه ، فقال : إئتوني بالسكين أشقّه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى »[3] .

وقد وضح الرسول ـ ﷺ ـ هذه القضية وجلّاها ، فقد روت أمُّ سلمة زوج النبي ﷺ « أنَّ النبي ـ ﷺ ـ سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : إنّما أنا بشر ، وإنَّه يأتيني الخصم ، فلعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها »[4] .

---

(١) رواه الجماعة إلاّ الترمذي (نيل الأوطار ١٢٥/٣) .
(٢) نيل الأوطار ١١٧/٣ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان » انظر فتح الباري ٤٥٨/٦ .
(٤) رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب إثم من خاصم في الباطل ، (انظر فتح الباري ١٠٧/٥) .

الذين ينفون عن الرسل والأنبياء هذه الأعراض مخالفون للنصوص:

ذهبت الشيعة الامامية الإثنا عشرية[1] إلى أن العصمة تقتضي ألّا يقع من الأنبياء سهو ولا نسيان ولا خطأ ، ولا خوف ولا غير ذلك من الأعراض البشريّة ، وقد سقنا لك النصوص من الكتاب والسنة الدالة على خلاف ذلك ، وهي نصوص لا تقبل تحويلا ولا تأويلا ، فعليك بالكتاب والسنة ففيهما الهداية .

(١) انظر عقائد الامامية لمحمد رضا المظفر ص ٧٩ .

العصمة من الذنوب

القبائح التي نسبها اليهود إلى الأنبياء والرسل[1]

ينسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين أعمالا قبيحة ، فمن ذلك :

١ ـ أن نبيّ الله هارون صنع عجلا ، وعبده مع بني إسرائيل ، إصحاح (٣٢) عدد (١) من سفر الخروج .

وقد بيّن ضلالهم هذا القرآن عندما حدثنا أنَّ الذي صنع لهم عجلا جسدا له خوار هو السامريّ ، وأن هارون قد أنكر عليهم إنكارا شديدا .

٢ ـ أن إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قدّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها . إصحاح (١٢) عدد (١٤) من سفر التكوين .

وقد كذبوا على خليل الرحمن وقد قص علينا الرسول ـ ﷺ ـ قصة إبراهيم هذه عند دخوله لمصر ، وفيها أن ملك مصر كان طاغية ، وكان إذا وجد امرأة جميلة ذات زوج قتل زوجها وحازها لنفسه ، فلما سئل إبراهيم عنها قال هي أخته ، يعني أخته في الإسلام ، وأخبر الرسول ﷺ أنَّ الله حفظ سارة عندما ذهبت إلى الطاغية ، فلم يمسها بأذى .

٣ ـ ومن ذلك أن لوطا عليه السلام شرب خمرا حتى سكر ، ثمَّ قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة بعد الأخرى . . سفر التكوين ، إصحاح (١٩) عدد

---

(١) النصوص المذكورة هنا مأخوذة بواسطة كتاب « محمد نبي الإسلام » ص ١٤٥ .

(٣٠) . ومعاذ الله أن يفعل لوط ذلك ، وهو الذي دعا إلى الفضيلة طيلة عمره ، وحارب الرذيلة ، ولكنّه الحقد اليهودي يمتد إلى الكملة من البشر ، فلعنة الله على الظالمين .

٤ ـ وأن يعقوب عليه السلام سرق مواش من حميّه ، وخرج بأهله خلسة دون أن يُعْلمه . . . سفر التكوين إصحاح (٣١) عدد (١٧) .

٥ ـ وأن راوبين زنى بزوجة أبيه يعقوب ، وأن يعقوب عليه السلام ، علم بهذا الفعل القبيح وسكت . . . سفر التكوين ، إصحاح (٣٥) عدد (٣٢) .

٦ ـ وأن داود عليه السلام زنى بزوجة رجل من قواد جيشه ، ثمَّ دبّر حيلة لقتل الرجل ، فقتل ، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمها إلى نسائه ، فولدت له سليمان . . سفر صموئيل الثاني إصحاح (١١) عدد (١) .

٧ ـ وأن سليمان ارتدَّ في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد . . . سفر الملوك الأول ، إصحاح (١١) عدد (٥) .

هذه بعض المخازي والقبائح والكبائر التي نسبتها هذه الأمّة الغضبية إلى أنبياء الله الأطهار ، وحاشاهم مما وصفوهم به ، ولكنها النفوس المريضة تنسب إلى خيرة الله من خلقه القبائح ليسهل عليهم تبرير ذنوبهم ومعايبهم عندما ينكر عليهم منكر ، ويعترض معترض .

النصارى ينسبون القبائح إلى الأنبياء

والنصارى ليسوا بأفضل من اليهود في هذا فقد نسبوا إلى الأنبياء والرسل القبائح ، وذلك بتصديقهم بالتوراة المحرفة المغيرة الموجودة اليوم والتي فيها ما ذكرنا ، بالاضافة إلى ما في الانجيل المحرف ؛ ومما فيه :

١ ـ ورد في إنجيل (متىّ) أن عيسى من نسل سليمان بن داود وأن جدهم فارض الذي هو من نسل الزنى من يهوذا بن يعقوب . . إصحاح متى الأول ، عدد (١٠) .

٢ ـ وفي إنجيل يوحنّا إصحاح (٢) عدد (٤) أن يسوع أهان أمّه في وسط جمع من الناس ، فأين هذا مما وصفه به القرآن ﴿ وبرًّا بِوَالِدَتِي﴾ « سورة مريم /٣٢ » .

٣ ـ وأن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا في بني اسرائيل هم سراق ولصوص .. انجيل يوحنّا ، اصحاح (١٠) عدد (٨) .

هذا غيض من فيض مما تطفّح به تلك الأناجيل المحرفة من وصف للأنبياء والرسل بما هم بريئون منه[١] ، إن الأنبياء والرسل أزكى الناس وأطهرهم وأفضلهم ، ووالله إن هؤلاء لضالون فيما وصفوا به أنبياء الله الأبرار الأطهار .

موقف الأمة الإسلامية من عصمة الأنبياء من الذنوب

الأمّة الإسلامية مجمعة على أن مثل هذه الذنوب التي نسبها اليهود والنصارى إلى أنبياء الله كالزنى والسرقة والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها . . . لا يمكن أن تقع من أحد من الأنبياء والرسل بحال من الأحوال ، وأنهم معصومون من ذلك .

---

(١) راجع لمزيد من الأمثلة كتاب « محمد نبي الإسلام » ص ١٤٦ .

العصمة من الصغائر

وقد ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر ، وقال ابن تيمية : « القول بأنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنَّ هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول . . »[1] .

الأدلة :

وقد استدل جماهير العلماء على دعواهم بأدلة :

١ ـ معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها ، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ، فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ « سورة طه/١١٦ ـ ١٢١ » .

والآية في غاية الوضوح والدلالة على المراد ، فقد صرحت بعصيان آدم ربّه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٣١٩/٤ .

٢ ـ ونوح دعا ربّه في ابنه الكافر ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ « سورة هود/٤٥ » فلامه ربّه على مقالته هذه ، وأعلمه أنّه ليس من أهله ، وأن هذا منه عمل غير صالح ﴿ قَالَ يَا نُوحُ ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ « سورة هود/٤٦ » فاستغفر ربّه من ذنبه وتاب وأناب ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ « سورة هود/٤٧ » .

والآية صريحة في كون ما وقع منه كان ذنبا يحتاج إلى مغفرة ﴿ وإلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي . . ﴾ .

٣ ـ وموسى أراد نصرة الذي من شيعته فوكز خصمه القبطي فقضى عليه ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ « سورة القصص/١٥ ـ ١٦ » ، فقد اعترف موسى بظلمه لنفسه ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأخبر الله بأنّه غفر له .

٤ ـ وداود عليه السلام تسّرع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني ، فأسرع إلى التوبة فغفر الله له ذنبه ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ راكِعاً ، وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ « سورة ص/٢٤ ـ ٢٥ » .

٥ ـ ونبينا محمد ﷺ عاتبه ربّه في أمور ﴿ يَـأَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ « سورة التحريم/١ » نزلت بسبب تحريم الرسول ـ ﷺ ـ العسل على نفسه ، أو تحريم مارية القبطية .

وعاتبه ربّه بسبب عبوسه في وجه الأعمى ابن أم مكتوم ، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلى الله ، والاقبال على الأعمى الراغب فيما عند الله هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . . ﴾ « سورة عبس/١ ـ ٤ » .

وقبل الرّسول ـ ﷺ ـ من أسرى بدر الفدية فأنزل الله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ « سورة الأنفال/٦٨ » .

هذه أمثلة اكتفينا بذكرها عن غيرها ، وإلاّ فقد ورد في القرآن مغاضبة يونس لقومه ، وخروجه من قومه من غير إذن من ربّه ، وما صنعه أولاد يعقوب بأخيهم يوسف في إلقائه في غيابة الجبِّ ، ثمَّ أوحى الله إليهم وجعلهم أنبياء .

القائلون بعصمة الأنبياء من الصغائر

يستعظم بعض الباحثين أن ينسب إلى الأنبياء صغائر الذنوب[1] التي أخبرت نصوص الكتاب والسنة بوقوعها منهم ، ويذهب هؤلاء إلى تهويل الأمر ، ويزعمون أنَّ القول بوقوع مثل هذا منهم فيه طعن بالرسل والأنبياء ، ثمَّ يتمحلون في تأويل النصوص ، وهو تأويل يصل إلى درجة تحريف آيات الكتاب كما يقول ابن تيمية[2] ، وكان الأحرى بهم تفهم الأمر على حقيقته ، وتقديس نصوص الكتاب والسنة ، واستمداد العقيدة في هذا الأمر وفي كلّ أمر من القرآن وأحاديث الرسول ، وبذلك نحكمها في كل أمر وهذا هو الذي أمرنا به ، أمّا هذا التأويل والتحريف بعد تصريح الكتاب بوقوع مثل ذلك منهم فإنّه تحكيم للهوى ، ونعوذ بالله من ذلك .

وقد انتشرت هذه التأويلات عند الكتاب المحدثين ، وهي تأويلات فاسدة من جنس تأويلات الباطنية والجهمية ، كما يقول ابن تيمية[3] .

شبهتان [4]

الذين منعوا من وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين :

الأولى : أن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾« سورة الأحزاب/ ٢١ » وهذا شأن كل رسول ، والأمر باتباع الرسول

---

(١) الشيعة الامامية الإثني عشرية مجمعون على عدم وقوع صغائر الذنوب من الأنبياء والأئمة ، راجع عقائد الامامية لمحمد رضا ص ٨٠ ، ٩٥ وعقائد الامامية الإثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني ص ١٥٧ .

(٢) مجموع الفتاوي (١٠/٣١٣) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ممن أشبع الكلام على هاتين الشبهتين والاجابة عليهما شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوي ١٠/ ٢٩٣ - ٣١٣ ، ١٥/ ١٥٠ .

يستلزم ان تكون اعتقاداته وأفعاله وأقواله جميعها طاعات لا محالة ، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال ، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأسي بالرسول ﷺ ، والنهي عن موافقتها من حيث كونها معصية منهي عنها ، وهذا تناقض ، فلا يمكن أن يأمر الله عبدا بشيء في حال أنه ينهاه عنه .

وقولهم هذا يكون صحيحا ، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة ، بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية ، أمّا وأنَّ الله ينبه رسله وأنبياءَه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى التوبة منها ، من غير تأخير فإنَّ ما أوردوه لا يصلح دليلا ، بل يكون التأسي بهم في هذا منصبا على الاسراع في التوبة عند وقوع المعصية وعدم التسويف في هذا ، تأسيا بالرسل والأنبياء الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير .

الثانية : أنَّ هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال ، وأنها تكون نقصا وإن تاب التائب منها ، وهذا غير صحيح ، فإنَّ التوبة تغفر الحوبة ، ولا تنافي الكمال ، ولا يتوجه الى صاحبها اللوم ، بل إنَّ العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيرا منه قبل وقوع المعصية ، وذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالى ، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء ، ولما يقوم به من صالح الأعمال يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات ، وقد قال بعض السلف : « كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة» ، وقال آخر : « لو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه » .

وقد ثبت في الصحاح أن الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضلته ناقته بأرض فلاة وعليها طعامه وشرابه ، فنام نومة فقام فوجد راحلته فوق رأسه فقال : اللَّهم أنت عبدي وأنا ربّك ، أخطأ من شدّة الفرح .

وفي الكتاب الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

« سورة البقرة/٢٢٢ » وقال تعالى مبينا مثوبة التائبين ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . . ﴾ « سورة الفرقان/٧٠ » .

وفي يوم القيامة يلقي الله على العبد ستره ثم يقرره بذنوبه الصغيرة ، حتى إذا ظن العبد أنّه قد هلك ، قال الله له : فإني قد أبدلتك بها حسنات ، وعند ذلك يطلب العبد رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقا منها أن تظهر ، ومعلوم أن حاله هذا مع التبديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار ، فآدم وزوجه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ « سورة الأعراف/٢٣ » وما كادت ضربة موسى تسقط القبطي قتيلا حتى سارع طالبا الغفران والرحمة قائلا : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ « سورة القصص/١٦ » . وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتى خرّ راكعا مستغفرا ﴿ فاستغفر ربّه وخرّ راكعا وأناب ﴾ « سورة ص/٢٤ » .

فالأنبياء لا يقرون على الذنب ، ولا يؤخرون التوبة ، فالله عصمهم من ذلك ، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها .

وبذلك انهارت هاتان الشبهتان ، ولم يثبتا في مجال الحجاج والنقاش ، وحسبنا بالأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم .

المعصية دليل البشرية

الرسل والأنبياء بشر من البشر ، عصمهم الله في تحمل الرسالة وتبليغها ، فلا ينسون شيئا ، ولا ينقصون شيئا ، وبذلك يصل الوحي الذي أنزله الله إلى الذين أرسلوا إليهم كاملا وافيا ، كما أراده الله جلَّ وعلا ، وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم فقد تقع منهم المخالفة الصغيرة ، بحكم كونهم بشرا ، ولكنَّ رحمة الله تتداركهم ، فينبههم الله إلى خطئهم ، ويوفقهم للتوبة والأوبة إليه .

يقول الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر : « إنَّ الوحي لا يلازم الأنبياء في كلِّ عمل يصدر عنهم ، وفي كلِّ قول يبدر منهم ، فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأنَّ الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحياناً »[1] .

تكريم الأنبياء وتوقيرهم

هذه الصغائر التي تقع من الأنبياء لا يجوز أن تتخذ سبيلا للطعن فيهم ، والإزراء عليهم ، فهي أمور صغيرة ومعدودة غفرها الله لهم ، وتجاوز عنها ، وطهرهم منها ، وعلى المسلم أن يأخذ العبرة والعظة لنفسه من هذه ، فإذا كان الرسل الكرام الذين اختارهم الله واصطفاهم عاتبهم الله ولامهم على أمور كهذه ـ فإنّه يجب أن نكون على حذر وتخوف من ذنوبنا وآثامنا ، وعلينا أن نتأسى بالرسل والأنبياء في المسارعة الى التوبة والأوبة الى الله ، وكثرة التوجه إليه واستغفاره .

---

(١) حياة محمد لهيكل ، انظر مقدمة الكتاب بقلم الشيخ المراغي ص ١١ .

العصمة لغير الأنبياء

أهل السنة والجماعة لا ينسبون العصمة لغير الأنبياء والمرسلين ، حتى أفضل هذه الأمّة بعد نبيها محمد - ﷺ - الصحابة - رضوان الله عليهم - وفيهم أبو بكر وعمر ليسوا بمعصومين ، وقد قال الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق في أوّل خطبة يخطبها بعد توليه الخلافة : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أخطأت فقوموني » ، وعندما اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب وجاءت بالدليل قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

عصمة المعزّ الفاطمي

يزعم أتباع « المعز معد بن تميم » وهو الذي يسميه بعض الناس : المعزّ لدين الله الفاطمي - أنّه معصوم هو وأولاده عن الذنوب والأخطاء .

وهذا الزعم زعم باطل أرادوا به اضلال الناس بتنصيب هذا الطاغية في مقام النبوة لتكون كلمته دينا يتبع ، وإلاّ فإن هذا الذي يسمونه المعزّ ، وأولئك الذين كانوا يسمّون بالفاطميين ليسوا من سلالة فاطمة ، وإنما هم من سلالة عبيد الله القداح ، كانوا يقولون بمثل هذه العصمة لأئمتهم ونحوهم ، مع كونهم كما قال فيهم أبو حامد الغزالي في كتابه الذي صنعه في الردّ عليهم - قال : « ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض[1] » .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٤/٣٢٠ .

عصمة الأئمة

يزعم الشيعة أن أئمتهم الاثني عشر معصومون عن الخطأ ، والعصمة التي ينسبونها لهم هي العصمة التي ينسبونها للأنبياء ، يقول أحد مُقَدَّمي الشيعة المعاصرين مبينا مفهوم عصمة الأئمة عندهم : « الأئمة لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة ، ونعتقد فيهم الاحاطة بكلّ ما فيه مصلحة للمسلمين[1] » وينقل إبراهيم الموسوي الزنجاني عن الصدوق قوله : « اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة أنهم معصومون مطهّرون من كلّ دنس ، وأنهم لا يذنبون ذنبا لا صغيرا ولا كبيرا ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[2] وهو يكفِّر الذين لا يقولون بعصمة الأئمة ، يقول بعد كلامه السابق مباشرة : « ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهَّلهم ، ومن جهلهم فهو كافر »[3] ، ثمَّ قال : « واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم وأواخرها لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان »[4] .

وقال المجلسي : « أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأنبياء والأئمة من الذنوب الصغيرة والكبيرة عمدا وخطأً ونسيانا ، قبل النبوة والامامة وبعدهما ، بل من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله تعالى ، ولم يخالف في ذلك إلا الصدوق محمد ابن بابويه وشيخه ابن الوليد ، فإنهما جوزا الإسهاء من الله تعالى لا السهو الذي يكون من الشيطان في غير ما يتعلق بالتبليغ وبيان الاحكام »[5] ، وعصمة الأئمة عندهم مسألة اعتقادية رئيسة ، ولذا فإنهم يكفرون مخالفيهم فيها ، ويترتب عليها أمور كثيرة منها : أنَّ الكلام المنسوب إلى الأئمة يعتبرونه دليلا شرعيا كالقرآن والسنة ، ولذا فإن التشريع لم ينته عندهم بوفاة الرسول ـ ﷺ ـ بل هو مستمّر إلى حين غيبة إمامهم الثاني عشر ، بل يرون أنّه يمكن أن يتلقوا رسائل من الامام

---

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ص ٩١ .

(٢) عقائد الإمامية الإثني عشرية ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) بحار الأنوار للمولى محمد باقر المجلسي (٢٥/٣٥٠ ـ ٣٥١) (انظر الامامة للسالوس ص ٢١) .

الغائب بواسطة نوّابه .

ومن ذلك أنهم أحقّ بالخلافة من غيرهم ، فهم أحقّ من أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة .

سر العصمة[1]

الأنبياء والرسل معصمون بالوحي ، ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ، إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحى ﴾ « سورة النجم/٣ - ٤ ». فما سر عصمة الأئمة ؟ يقول علماء الشيعة الإمامية : إنَّ الله جعل في الأئمة أرواحا يسددهم بها ، فقد عنون الكليني في كتابه أصول الكافي لهذا الموضوع بقوله : « باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمة » (١/٢٧١ - ٢٧٢) و « باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة » (١/٢٧٣ - ٢٧٤) ، وفي هذا الباب ستة أخبار منها عن أبي عبد الله قال في الروح الذي في هذه الآية ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » : خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله - عزَّ وجلَّ - أعظم من جبريل وميكائيل ، كان مع رسول الله ﷺ - يخبره ، ويسدده ، وهو مع الأئمة من بعد .

وفي الباب الأسبق ذكر عن الامام الصادق أن روح القدس خاصة بالأنبياء ، فإذا قبض النبي انتقل روح القدس فصار مع الامام ، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو ، والامام يرى به[2] ، وفي الحاشية فسّر الرؤية بقوله : يعني ما غاب عنه في أقطار الارض ، وما في عنان السماء ، وبالجملة ما دون العرش إلى ما تحت الثرى .

وفي كتاب بحار الأنوار للمولى محمد باقر المجلسى (٢٥/٤٧ - ٩٩) « باب الأرواح التي فيهم » « أي في الأئمة » وأنهم مؤيدون بروح القدس وقال ابن بابوية القمي في « رسالة للصدوق في الاعتقادات » (ص ١٠٨ - ١٠٩) . . « اعتقادنا

---

(١) النقول المثبتة هنا بمصادرها أخذناها من كتاب الامامة عند الجمهور والفرق المختلفة د . على أحمد السالوس (ص ٢٠) .

(٢) انظر عقائد الامامية الإثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني ص ١٦١ .

في الأخبار الصحيحة عن الأئمة أنها موافقة لكتاب الله ، متفقة المعاني ، غير مختلفة ، لأنها مأخوذة من طريق الوحي عن الله سبحانه » ، وهذا القمي صاحب كتاب « فقيه من لا يحضره الفقيه » أحد كتب الحديث الأربعة المعتمدة عند الجعفرية يقول : « ويرى علماء الشيعة أنَّ النبيَّ إذا لم يوص فإنّه ناقص النبوة والرسالة ، وأنّه قد ضيع أمته »[1] .

ومما يدلُّ على بطلان مدعاهم في الأئمة أنَّ المعصوم يجب اتباعه من غير دليل ، ومخالفة غير المعصوم جائزة ، بل تكون واجبة إذا علمنا أنّه خالف النصَّ ، وقد أمرنا الله بطاعته وطاعة رسوله ، وغير رسوله يطاع إن أمر بطاعة رسوله ، فإن تنازعنا رددنا الأمر إلى كتاب الله وسنة رسوله : ﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إنْ كُنْتُمْ تؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ « سورة النساء/ ٥٩ » فلو كان الأئمة معصومين لكان أوجب الردّ إلى الله وإلى الرسول والأئمة ، فدلَّ عدم ايجاب الردّ إليهم حال التنازع على عدم عصمتهم .

وقد كان عليّ وابناه وغيرهم يخالف بعضهم بعضا في العلم والفتيا ، كما يخالف سائر أهل العلم بعضهم بعضا ، ولو كانوا معصومين لكان مخالفة المعصوم للمعصوم ممتنعة ، ولقد كان الحسن في أمر القتال يخالف أباه ، ويكره كثيرا مما يفعله ، ويرجع علي في آخر الأمر إلى رأيه ، وتبين له في آخر الأمر أنّه لو فعل غير الذي فعله لكان الصواب ، وله فتاوى رجع ببعضها عن بعض ، والمعصوم لا يكون له قولان متناقضان ، إلا أن يكون أحدهما ناسخا للآخر . وقد وصى الحسن أخاه الحسين بأن لا يطيع أهل العراق ، ولا يطلب هذا الأمر ، ولو كان معصوما لما جاز للحسين مخالفته[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ .

(٢) راجع مجموع الفتاوى ٣٥/١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

الفصل السابع

دَلائِلُ النُّبُوَّةِ

دَلائِلُ النُّبُوَّةِ

تمهيد

الأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى عباده يقولون للناس : نحن مرسلون من عند الله ، وعليكم أن تصدقونا فيما نخبركم به ، كما يجب عليكم أن تطيعونا بفعل ما نأمركم به ، وترك ما ننهاكم عنه ، وقد أخبر الله في سورة الشعراء أنَّ نوحاً خاطب قومه قائلاً : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ « سورة الشعراء / ١٠٦ ـ ١٠٨ » . وبهذا القول نفسه خاطب رسل الله : هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، أقوامهم ، بل هي مقالة ودعوة كل رسول لقومه .

فإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ أن يقيم الله الدلائل والحجج والبراهين المبينة ، صدق الرسل في دعواهم أنهم رسل الله ؛ كي تقوم الحجّة على الناس ، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ « سورة الحديد/ ٢٥ » أي بالدلائل والآيات البينات التي تدلُّ على صدقهم .

تنوع الدلائل

أفراد الأدلة الدالة على صدق كل رسول كثيرة متنوعة ، وقد عدّ الذين ألّفوا في دلائل نبوة نبينا محمد ـ أدلة صدقه فنافت على الألف عند بعضهم ، ويمكننا أن نقسم هذه الأدلة إلى أقسام ، يضمُّ كل قسم منها مجموعة متشابهة ، وقد أرجعنا أفراد الأدلة إلى خمسة أمور :

الأول : الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقا لرسله .

الثاني : بشارة الأنبياء السابقين بالأنبياء اللاحقين .
الثالث : النظر في أحوال الأنبياء .
الرابع : النظر في دعوة الرسل .
الخامس : نصر الله وتأييده لهم .

وسنتناول كلَّ واحد من هذه الخمسة بشيء من الإيضاح والتفصيل .

أولاً : الآيات والمعجزات

الآية - في لغة العرب - العلامة الدالة على الشيء ؛ والمراد بها هنا : ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن الكونية المعتادة التي لا قدرة للبشر على الإتيان بمثلها ، كتحويل العصا إلى أفعى تتحرك وتسعى ، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلاً غير قابل للنقض والإبطال ، يدلُّ على صدقهم فيما جاءوا به .

تعريف الآية والمعجزة

تتابع العلماء على تسمية هذه الآيات بالمعجزات ، والمعجزة - في اللغة - اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير[1] .

ويعرّف الفخر الرازي المعجزة في العرف : بأنّها أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة[2] .

ويعرفها ابن حمدان الحنبلي بأنَّها ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداءً بحيث لا يقدر أحدٌ على مثلها ، ولا على ما يقاربها[3] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٦٥/١

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢٨٩/٢ - ٢٩٠ .

(٣) المصدر السابق .

وعلى ذلك فإنَّ الأمور التالية لا تعدّ من باب المعجزات :

١ ـ الخوارق التي تعطى للأنبياء وليس مقصودا بها التحدي ، كنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ ، وتكثيره الطعام القليل ، وتسبيح الحصا في كفّه ، وإتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه ، وما أشبه ذلك .

٢ ـ الخوارق التي أعطاها الله لغير الأنبياء ويسميها المتأخرون كرامات .
والذين فرقوا هذا التفريق هم العلماء المتأخرون ، أمّا المعجزة في اللغة وفي عرف العلماء المتقدمين كالامام أحمد فإنّها تشمل ذلك كله[١] .

وقد أطلقنا عليها اسم « الآية » كما جاء بذلك القرآن الكريم ، وهو اسم شاملٌ لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواءً أقصد به التحدي أم لم يقصد .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ٣١١/١١ ، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٩٠ .

أنواع الآيات

إذا استقرأنا الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لرسله وأنبيائه نجدها تندرج تحت ثلاثة أمور : العلم ، والقدرة ، والغنى[1] .

فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية ، كإخبار عيسى قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم ، وإخبار رسولنا - ﷺ - بأخبار الأمم السابقة ، وإخباره بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل - كل ذلك من باب العلم .

وتحويل العصا أفعى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وشقّ القمر وما أشبه هذا - من باب القدرة .

وعصمة الله لرسوله ﷺ من الناس ، وحمايته له ممن أراد به سوءاً ، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك على حيويته ونشاطه من باب الغنى .

وهذه الأمور الثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى ، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلاّ لله تعالى ، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بالبراءة من دعوى هذه الأمور ﴿ قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ « سورة الأنعام/ ٥٠ » .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ١١/٣١٢ - ٣١٣ .

فالرسول ﷺ يبرأ من دعوى علم الغيب ، وملك خزائن الأرض ، ومن كونه ملكا مستغنيا عن الطعام والشراب والمال . والرسل ينالون من هذه الثلاثة المخالفة للعادة المطردة ، أو لعادة أغلب الناس بقدر ما يعطيهم الله تعالى ، فيعلمون من الله ما علمهم إيّاه ، ويقدرون على ما أقدرهم عليه ، ويستغنون بما أغناهم به .

أمثلة من آيات الرسل

١ - آية نبي الله صالح

دعا صالح قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ « سورة النمل /٤٥ » فكذبوه وطلبوا منه آية تدلّ على صدقه ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَا أَنْتَ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ « سورة الشعراء/ ١٥٣ - ١٥٤ » .

يقول ابن كثير : « ذكر المفسرون أنَّ ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح ، فدعاهم إلى الله ، وذكّرهم ، وحذّرهم ، ووعظهم ، وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة ، من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافا سموها ، ونعتوها ، وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة ، من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم نبيهم صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به ، وتصدقوني بما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثمَّ قام إلى مصلاه فصلّى لله - عزَّ وجلَّ - ما قدّر له ، ثمَّ دعا ربَّه - عزَّ وجلَّ - أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عزَّ وجلَّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ، ومنظرا هائلا ، وقدرة باهرة ، ودليلا قاطعا ، وبرهانا ساطعا ، فآمن كثير منهم ، واستمرَّ أكثرهم على كفرهم [1] وقد ذكر الله استجابته

---

(١) البداية والنهاية ١/١٣٤ .

لطلبهم الآية ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ ، « سورة الشعراء/١٥٥ » ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ « سورة الأعراف/٧٣ » ، وقد أخبر الله أنها كانت آية واضحة بينة لا خفاء فيها ، ولذا سماها مبصرة ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ « سورة الاسراء/ ٥٩ » .

٢ ـ معجزة إبراهيم عليه السلام

حطّم إبراهيم آلهة قومه التي كانوا يعبدونها ، فأشعلوا له النار ، ورموه فيها ، فأمر الله ـ جلّ وعلا ـ النّار ألاّ تصيبه بأذى ﴿ قَالُوا : حَرِّقُوهُ ، وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ، قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ . « سورة الأنبياء/٦٨ ـ ٧٠ » .

ومن الآيات التي أجراها على يد إبراهيم إحياء الموتى ، وقد قصّ الله علينا خبر ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً ﴾ « سورة البقرة/ ٢٦٠ » .

فأمره بذبح هذه الطيور ، ثم تقطيعها ، وتفريقها على عدة جبال ، ثمَّ دعاها فلبت النداء ، واجتمعت الأجزاء المتفرقة ، والتحمت كما كانت من قبل ، ودبت فيها الحياة ، وطارت محلقة في الفضاء فسبحان الله ما أعظم شأنه ، وأجلَّ قدرته .

٣ ـ آيات نبي الله موسى عليه السلام

أعطى الله موسى تسع آيات بينات ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ « سورة الإسراء/ ١٠١ » .

١ ـ وأعظم هذه الآيات وأكبَرها العصا التي كانت تتحول إلى حيَّة عظيمة عندما يلقيها على الأرض ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَال : هِيَ عَصَايَ ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ، وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ، قَال : أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا ، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ، تَسْعَى ، قَالَ : خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾ « سورة طه/١٧ ـ ٢١ » .

وكان من شأن هذه العصا أن ابتلعت عشرات من الحبال والعصيّ التي جاء بها سحرة فرعون ليغالبوا موسى ، ﴿ قَالُوا : يَا مُوسَى إِمّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ : بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا : لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ . « سورة طه/٦٥ ـ ٦٩ » .

وعندما عاين السحرة ما فعلته حيَّة موسى ، علموا أنَّ هذا ليس من صنع البشر ، إنّما هو من صنع الله خالق البشر ، فلم يتمالكوا أن خروا أمام الجموع ساجدين لله ربِّ العالمين ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ . « سورة طه/٧٠ » .

٢ ـ ومن الآيات التي أرسل بها موسى ما ذكره الله في قوله : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ « سورة طه/٢٢ » ، كان يدخل يده في جيبه (درع قميصه) ، ثمّ ينزعها ، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، أي من غير برص ، ولا بهق .

وذكر الله سبع آيات في سورة الأعراف ، فقد ذكر الله أنه أصابهم :

٣ ـ بالسنين ، وهي ما أصابهم من الجدب والقحط ، بسبب قلة مياه النيل ، وانحباس المطر عن أرض مصر .

٤ ـ نقص الثمرات ذلك أن الأرض تمنع خيرها ، وما يخرج يصاب بالآفات والجوائح .

٥ ـ الطوفان الذي يتلف المزارع ويهدم المدن والقرى .

٦ ـ الجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة .

٧ ـ القمّل ، حشرة تؤذي الناس في أجسادهم .

٨ ـ الضفادع التي نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها .

٩ ـ الدم الذي يصيب طعامهم وشرابهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ،وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ « سورة الأعراف/ ١٣٠ ـ ١٣٣ » .

آيات أخرى :

هذه الآيات التسع التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، وإلاّ فالآيات التي أجراها الله على يد موسى أكثر من ذلك ، فمن ذلك ضرب موسى البحر بعصاه وانفلاقه ، ومن هذا ضربه الحجر فينفلق عن اثنتي عشرة عينا ، وإنزال المن والسلوى على بني إسرائيل في صحراء سيناء ، وغير ذلك من الآيات .

٤ ـ معجزات نبي الله عيسى عليه السلام

من معجزاته التي أخبرنا الله بها أنّه كان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيورا بإذن الله وقدرته ، ويمسح الأكمه فيبرأ بإذن الله ، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه ، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى ، وقد حكى القرآن لنا هذا في قوله تعالى مخاطبا عيسى : ﴿ **وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنْفُخُ فِيهَا ، فَتَكُون طَيْراً بِإِذْنِي ، وَتُبْرِىءُ الْأَكْمَهَ والْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي** ﴾ « سورة المائدة/ ١١٠ » .

ومن آياته تلك المائدة التي أنزلها الله من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى إنزالها ، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم وآخرهم ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوارِيّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، هَـلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ، وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ، قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، قَالَ اللَّهُ : إِنّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ، فَإِنّي أُعذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ « سورة المائدة/١١٢ ـ ١١٥ » .

٥ - آيات خاتم الأنبياء والمرسلين
صلوات الله وسلامه عليه

أجرى الله على يد نبيينا محمد - ﷺ - معجزات باهرات ، وآيات مبصرات ، إذا نظر فيها مريد الحقّ ، دلّته على أنها شهادة صادقة من الله لرسوله ﷺ ، وقد عدّها بعض العلماء فنافت على ألف معجزة ، وقد ألفت فيها مؤلفات ، وتناولها علماء التوحيد والتفسير والحديث والتاريخ بالشرح والبيان .

الآية العظمى

وأعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ ، بل أعظم آيات الرسل كلهّم - القرآن الكريم ، والكتاب المبين ، وهو آية تخاطب النفوس والعقول ، آية باقية دائمة الى يوم الدين ، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل ﴿ **وَإِنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه ، تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ « سورة فصلت / ٤١ - ٤٢ ».

وقد تحدى الله بهذا الكتاب فصحاء العرب ، وقد كانت الفصاحة والبلاغة وجودة القول هي بضاعة العرب التي نبغت بها ، وقد عادى العرب دعوة الإسلام ورسول الإسلام ، وكان مقتل هذه الدعوى أن يعارض فصحاؤ هم هذا الكتاب ، ويأتوا بشيء من مثله ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ﴿ **وإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعوا شُهَدَاءَكُمْ مِن دُونِ اللهِ إن كُنْتُمْ صَادِقِين ، فإنْ لم تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ « سورة البقرة/٢٣ - ٢٤ » .

نمط فريد من المعجزات

شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطا مخالفا لمعجزات الرسل ، وكان الله قادرا على أن ينزل معجزة حِسيّة تذهل من يَراها : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لها خاضِعِينَ ﴾ « سورة الشعراء/٤ » . فلو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا ، ولا انصرافا عن الإيمان ، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسيّة : ﴿ فَظَلَّت أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ « سورة الشعراء/٤ » ملويّة محنيّة ، حتى لكأنَّ هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون . ولكنه ـ سبحانه ـ شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة ، لقد جعل آيتها القرآن ، منهاج حياة كاملة ، معجزا في كلٍّ ناحية :

معجزا في بنائه التعبيري ، وتنسيقه الفني ، باستقامته على خصائص واحدة ، في مستوى واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ، كما هي الحال في أعمال البشر ، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات ، بينما تستقيم خصائصِ هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لا يتخلف ، يدلُّ على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال .

معجزا في بنائه الفكري ، وتناسق أجزائه وتكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة ، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقى وتتناسق وتتكامل ، وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتلبيها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية ، إذ تقصر عن تلبيتها . . وكلها مشدودة إلى محور واحد ، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة ، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمكان ، هي التي أحاطت به هذه الاحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

معجزا في يسر مداخله الى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح

مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين ، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ـ ولم يشاء أن ينزل آية قاهرة مادّية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم ـ ذلك أنَّ هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة إلى الامم كلّها ، وللأجيال كلّها ، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان ، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب ، لكلِّ أمّة ولكل جيل ، والخوارق القاهرة لا تلوي إلاّ أعناق من يشاهدونها ، ثمَّ تبقى بعد ذلك قصّة تروى ، لا واقعا يشهد . . فأمّا القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمدُّ منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم ـ لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم ـ ويلبي حاجاتهم كاملة ، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل ، وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد[1] .

---

(١) راجع في ظلال القرآن ١٩/٢٥٨٤ .

الإسراء والمعراج

من الآيات البينات والمعجزات الخارقات إسراء الله بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث جمع الله له الأنبياء فصلّى بهم إماما ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا . . ﴾ « سورة الإسراء/١ » ، ومن هناك عرج به إلى السموات العلا ، وهناك رأى من آيات ربّه الكبرى ، رأى جبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وصعد به إلى سدرة المنتهى ، وجاوز السبع الطباق وكلّمه الرحمن وقربه ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ، وَلَقَدْ رآه نَزْلَة أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتهى ، عِنْدها جَنَّةُ الْمأوَى ، إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأى مِن آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ « سورة النجم/١٢ - ١٨ » .

وقد استعظمت قريش دعوى رسول الله - ﷺ - فقد كانت القوافل تمضي الأسابيع في الذهاب الى بيت المقدس والعودة منها ، فكيف يتسنى لرجل أن يمضي ويعود في جزء من ليلة ! ذلك أمر عجيب ، وهو حقاً عجيب ، ولكن العجب يتلاشى إذا علمنا أنّ الذي أسرى به هو الله تعالى ، والله على كلّ شيء قدير .

انشقاق القمر

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر ، فقد سأل أهل مكة الرسول - ﷺ - آية ، فانشق القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما ، وقد كان القمر عند انشقاقه بدرا .

وقد سجّل الله ذكر هذه الآية في كتابه ، فقال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ، وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ﴾« سورة القمر/١ - ٢ » .

وينقل ابن كثير اجماع المسلمين على وقوع هذه الآية ، كما يذكر أنّه قد وردت الأحاديث بذكر انشقاق القمر متواترة من طرق متعددة تفيد القطع[1] .

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أنحاء الجزيرة العربية ، فإنَّ أهل مكة لم يصدقوا ، وقالوا : سحرنا محمد ، ثمَّ استدركوا قائلين : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإنَّ محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلَّهم ، وفي اليوم التالي سألوا من وفد إليهم ، من خارج مكّة ، فأخبروا أنَّهم قد رأوه .

وقد شاهد الناس انشقاقه في خارج الجزيرة العربية ، يقول ابن كثير : « شوهد انشقاقه في كثير من بقاع الارض ، ويقال : إنّه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند ، وبنى بناء في تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر »[2] .

---

(١) البداية والنهاية ١١٨/٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٢٠/٣ .

قد يقال « إن انشقاق القمر ليس شيئا مستحيلا ، فالعلم قد شاهد انشقاق مذنب بروكس » شقين سنة ١٨٨٩ م ، وكذلك انقسام مذنب « بيلا » إلى جزئين سنة ١٨٤٦ م ، كما ذكر الفلكي « سبنسر جونز » في فصل المذنبات والشهب من كتاب « عوالم بلا نهاية »[١] .

وفي الاجابة يقال : « الفرق بين انشقاق القمر وانشقاق هذين المذنبين أنهما لم يلتئما بعد الانشقاق ، والقمر التأم ، وهو الفرق المنتظر بين الظاهرة الفلكية في الفطرة والمعجزة الفلكية على يد رسول ، لأنَّ المعجزة مؤقتة تزول بزوال وقتها وتحقق الغرض منها ، ولو استمرت لكانت ظاهرة طبيعية صرفة ، ولخرجت عن دائرة المعجزات »[٢].

---

(١) المصدر السابق ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ١٣١ .

تكثيره الطعام صلوات الله وسلامه عليه

وقد وقع هذا منه ﷺ أكثر من مرة ، فمن ذلك ما رواه أنس ، قال : قال أبو طلحة لأمّ سليم ، لقد سمعت صوت رسول الله - ﷺ - ضعيفا ، أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثمّ أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ، ثمّ دسته تحت يدي ، ولاثتني[1] ببعضه ، ثمّ أرسلتني إلى رسول الله ﷺ ، فذهبت به ، فوجدت رسول الله - ﷺ - في المسجد والناس معه ، فقمت عليهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة » ؟ قلت : نعم ، قال : « بطعام » ؟ قلت : نعم ، فقال رسول الله - ﷺ - لمن معه : « قوموا » فانطلق ، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة ، فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أمّ سليم ، قد جاء رسول الله - ﷺ - بالنّاس ، وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت: الله ورسوله أعلم .

فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله - ﷺ - وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ﷺ : « هلمي يا أمّ سليم ، ما عندك » ؟ فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله ﷺ ، ففت ، وعصرت أم سليم عكة ، فأدَمَتْهُ ، ثم قال رسول الله - ﷺ - فيه ما شاء الله أن يقول ، ثمّ قال : « ائذن لعشرة » ، فأذن لهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثمّ قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثمّ خرجوا ، ثمّ قال : « ائذن لعشرة » ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ،

---

(١) لاثتني : أي لفت عليّ بعض الخمار عمامة .

ثمّ خرجوا ، ثمّ قال : « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم ، وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا » متفق عليه[1] .

خبر جابر بن عبد الله :

ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله قال : انكفأت إلى امرأتي [في يوم الخندق] فقلت : هل عندك شيء ! فإني رأيت بالنبيّ ﷺ خمصا « جوعا » شديدا ، فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ، ولنا بهمة داجن « سمينة » فذبحتها ، وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم في البرمة ، (القدر) ثم جئت النبي - ﷺ - فساررته ، فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا ، وطحنت صاعا من شعير ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبيُّ ﷺ : « يا أهل الخندق ، إنّ جابرا صنع سُورا « طعاماً » فحي هلا بكم » .

فقال رسول الله ﷺ : « لا تنزلنّ برمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء ، وجاء ، فأخرجت له عجينا ، فبصق فيه ، وبارك (دعا بالبركة فيه) ثمّ عمد إلى برمتنا ، فبصق ، وبارك ، ثمّ قال : ادعي خابزة ، فلتخبز معك ، واقدحي « اغرفي » من برمتكم ، ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغِطّ « تفور وتغلي » كما هي ، وإنّ عجيننا ليخبز كما هو » متفق عليه[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح (١٨٢/٣) .

(٢) مشكاة المصابيح (١٦٨/٣) .

تكثيره الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة

وقد وقع من هذا شيء كثير من الرسول ﷺ ، نذكر طرفا منه ، فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله ، قال عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه رَكوة (ظرف للماء) فتوضأ منها ، ثمَّ أقبل الناس نحوه ، قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ به ، ونشرب إلا ما في ركوتك ، فوضع النبي - ﷺ - يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، قال : فشربنا ، وتوضأنا . قيل لجابر : كم كنتم ؟ قال لو كنّا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة » متفق عليه[1] .

ومن ذلك تكثيره ماء بئر الحديبية في يوم الحديبية ، فقد روى البراء بن عازب قال : كنّـا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائةٍ يوم الحديبية ، والحديبية بئر ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ النبيّ ﷺ ، فأتاها . فجلس على شفيرها (طرفها) ، ثمَّ دعا بإناء من ماء ، فتوضأ ، ثمَّ مضمض ، ودعا ، ثمَّ صبّه ، فيها ، ثم قال : « دعوها ساعة » ، فأرووا أنفسهم وركابهم ، حتى ارتحلوا » رواه البخاري[2] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : كنّا نعدُّ الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنّا مع النبيّ ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقال : « اطلبوا فضلة من ماءٍ » فجاءوا بإناء فيه قليل من الماء ، فأدخل يده في الإناء ، ثمَّ قال : « حيَّ على الطَّهور المبارك ، والبركة من الله » ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يأكل » رواه البخاري .

---

(١) انظر مشكاة المصابيح (٣/١٧٠) .

(٢) مشكاة المصابيح (٣/١٧٠) .

كف الأعداء عنه

فمن ذلك استجابة الله دعاء نبيه - ﷺ - عندما كان مهاجرا ، وأدركه سراقة بن مالك ، فارتطمت بسراقة فرسه إلى بطنها في أرض صلبة ، فقال سراقة : إني أراكما قد دعوتما عليَّ ، فادعوا لي ، فالله لكما أن أردّ عنكما الطلب ، فدعا له النبي - ﷺ - فنجا ، فجعل لا يلقى أحدا إلاّ قال : كفيتم ، ما ههنا ، فلا يلقى أحدا إلاّ ردّه . متفق عليه[1] .

وفي معركة حنين انهزم المسلمون وثبت الرسول - ﷺ - وقلّة من المؤمنين أولئك الذين بايعوا تحت الشجرة ، فلّما حمى الوطيس ، أخذ صلوات الله وسلامه عليه حصيات ، فرمى بهنَّ وجوه الكفار ، ثمَّ قال : « انهزموا وربِّ محمد » يقول العباس راوي الحديث : فوالله ما هو إلاّ أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدّهم كليلا ، وأمرهم مدبرا . رواه مسلم[2] .

وفي رواية سلمة بن الأكوع ، قال : غزونا مع رسول الله ﷺحنيناً ، فولّى صحابة رسول الله ﷺ ، فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ، ثمَّ قبض قبضة من تراب الأرض ، ثمَّ استقبل به وجوههم ، فقال : « شاهت الوجوه » ، فما خلق الله منهم إنسانا إلاّ ملأ الله عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين ، فهزمهم الله ، وقسم رسول - ﷺ - غنائمهم بين المسلمين » رواه مسلم[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح (١٦٦/٣) .

(٢) مشكاة المصابيح (١٧٢/٣) .

(٣) المصدر السابق .

ومن ذلك أن أبا جهل حلف باللات والعزى أنه لو رأى الرسول ﷺ يصلي في المسجد حيث مجامع قريش أن يطأ على رقبته ، أو ليعفرن وجهه في التراب ، فلما رأى الرسول - ﷺ - ساجدا ، أراد أن يفعل ما أقسم عليه ، فلما اقترب منه « مافجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له : مالك ؟ فقال : إنّ بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة » .

فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا مني لأختطفته الملائكة عضوا عضوا » رواه مسلم[1] .

---

(١) جامع الأصول (١٢/٩٤) .

اجابة دعوته[1]

اهتداء أم أبي هريرة بدعوة الرسول ﷺ :

عن أبي هريرة قال : كنت أدعو أميًّ إلى الإسلام وهي مشركة ، فدعوتها يوما ، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله - ﷺ - وأنا أبكي ، قلت : يا رسول الله ادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة ، فقال : « اللهمَّ اهد أم أبي هريرة » فخرجت مستبشرا بدعوة النبي - ﷺ - فلمّا صرت على الباب فإذا هو مجاف[2]،فسمعت أمّي خشف قدمي ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة[3] الماء ، فاغتسلت ، فلبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب ، ثمَّ قالت : يا أبا هريرة : أشهد أنْ لا إله إلاّ الله ، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله ، فرجعت إلى رسول الله ، وأنا أبكي من الفرح ، فحمد الله وقال خيراً[4] .

---

(١) انظر هذه النصوص في كتاب معجزات المصطفى لخير الدين وائلي ص ٦١ .

(٢) مردود .

(٣) تحريك .

(٤) رواه مسلم .

أصبح بدعوته فارسا :

عن جرير بن عبد الله قال : قالَ لي رسول الله ﷺ « ألا تريحني[1] من ذي الخَلَصةِ[2] ؟ » فقلتُ : بلى . وكنتُ لا أثبت على الخيلِ فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ ﷺ ، فضربَ يدَه على صدري حتى رأيتُ أثرَ يدهِ في صدري وقال : « اللهمَّ ثبِّته واجعلْه هادياً مهديّاً » قال : فما وقعتُ عن فرسي بعدُ ، فانطلقَ في مائةٍ وخمسين فارساً من أحمس[3] فحرّقها[4] بالنارِ وكسرَها[5] .

وعن أنس قال : أصابتِ الناسَ سنةٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ فبينا النبيُّ ﷺ يخطبُ في يومِ الجمعةِ قام أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ الله هلَكَ المالُ ، وجاعَ العيالُ فادعُ اللّهَ لنا . فرفعَ يديْهِ وما نرى في السماءِ قَزَعةً[6] فوالذي نفسي بيدهِ ما وضعَها حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجبالِ ، ثم لم ينزلْ عن منبرهِ حتى رأيتُ المطرَ يتحادَرُ على لحيتهِ ، فمُطِرْنا يومَنا ذلك ، ومن الغدِ ، ومن بعدِ الغدِ حتى الجمعةِ الأخرى ، وقامَ ذلكَ الأعرابي - أو غيرهُ - فقالَ : يا رسولَ الله تهدَّمَ البناء وغرقَ المالُ فادعُ الله لنا . فرفعَ يديْه فقال : «اللهم حوالَيْنا ولا علينا » فما يُشيرُ الى ناحيةٍ من السحاب إلا انجابت وصارتْ المدينةُ[7] مثلَ الجوبةِ[8] وسال وادي قناة شهراً ولم يجيءْ أحدٌ من ناحيةٍ إلا حدّثَ بالجَوْدِ .

وفي رواية قال : «اللهم حوالَيْنا ولا علينا اللهمَ على الآكامِ والظِراب[9] وبطونِ الأوديةِ ومنابتِ الشجرِ » قال : فأقلعتْ وخرجنا نمشي في الشمسِ[10] .

---

(1) تخلصني .

(2) بيت لطاغية خثعم وكان يدعى كعبة اليمامة .

(3) اي من قوم قريش . والاحمس الشجاع .

(4) اي كعبة اليمامة

(5) متفق عليه .

(6) قطعة من السحاب .

(7) اي جوها .

(8) الفرجة في السحاب .

(9) الروابي

(10) متفق عليه .

أصابت الدعوة يد مستكبر

وعن سلمة بن الأكوع أنَّ رجلاً أكلَ عندَ رسولِ الله ﷺ بشمالهِ فقال : « كُل بيمينك » قال : لا أستطيعُ . قال : « لا استَطعْتَ » ما مَنَعه إلا الكِبْرُ . قالَ[١] : فما رفعَها إلى فيهِ[٢] .

بركة دعوة الرسول ﷺ تصيب بعير جابر :

وعن جابرٍ قال : غزوتُ مع رسولِ الله ﷺ وأنا على ناضحٍ[٣] قد أعيى ، فلا يكادُ يسيرُ فتلاحَقَ[٤] بيَ النبيُّ ﷺ فقال : « ما لبعيرِكَ ؟ » قلتُ قد عَيي ، فتخلفَ رسولُ الله ﷺ فزجرَه فدعا له ، فما زال بينَ يدي الابلِ قدّامها يسيرُ . فقال لي : « كيف تَرى بعيرك ؟ » قلتُ : بخيرٍ قد أصابتْه بركتُك . قال : « أفتبيعنيه بوقيةٍ ؟ » فبعتُه على أنَّ لي فقارَ ظهره[٥] إلى المدينةِ . فلما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ غدوتُ عليه بالبعيرِ فأعطاني ثمنَه وردَّه عليّ[٦] .

---

(١) اي سلمة .

(٢) رواه مسلم

(٣) بعير يستقي عليه .

(٤) لحق

(٥) اي ركوب ظهره .

(٦) متفق عليه .

إبراء المرضى[1]

إبراؤه من كسرت رجله :

عن البراء قال : بعثَ النبيُّ ﷺ رهْطاً إلى أبي رافعٍ[2] فدخل عليه عبدُ الله بنُ عتيكٍ بيتَه ليلاً وهو نائمٌ فقتلَه فقالَ عبدُ الله بنُ عتيك : فوضعتُ السيفَ في بطنهِ حتى أخذَ في ظهرِه فعرفتُ أني قتلتُهُ فرجعتُ أفتحُ الأبوابَ حتى انهيتُ إلى درجةٍ فوضعتُ رجلي فوقعتُ في ليلة مقمرةٍ فانكسرتْ ساقي ، فعصبتُها بعمامةٍ فانطلقتُ إلى أصحابي فانتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ فحدثتُهُ فقالَ : ابسطْ رجلَكَ فبسطتُ رجلي فمسَحها فكأنما لم أشتكِها قَطُّ[3] .

إبراؤه عين علي بن أبي طالب :

وعن سهلِ بن سعدٍ أن رسولَ الله ﷺ قالَ يومَ خيبر : لأُعطينَ هذه الراية غداً رجلاً يفتحُ الله على يديْه ، يحبُّ الله ورسولَه ويحبُّه الله ورسولُهُ » فلما أصبحَ الناسُ غَدوا على رسولِ الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يُعطاها فقال : « أينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ؟ » فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيهْ ، قال : « فأرسلوا إليه » فأُتيَ به فَبصقَ رسول الله في عينيه فَبَرَأَ حتى كأنْ لم يكنْ بهِ وجعٌ ، فأعطاهُ الرايةَ فقال عليٌّ : يا رسولَ الله أقاتلُهم حتى يكونوا مثلَنا ؟ قال : « انفذْ على رسلك[4] حتى

---

(١) راجع معجزات المصطفى لخير الدين وائلي .

(٢) اليهودي وكان أعدى أعداء رسول الله ﷺ وقد نبذ عهده وتعرض له بالهجاء .

(٣) رواه البخاري .

(٤) اي امضِ على رفقك ولينك .

تنزلَ بساحتِهم ثم ادعُهم إلى الاسلامِ وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه ، فوالله لأنْ يهديَ اللّهُ بكَ رجلًا واحداً خيرٌ لك منْ أنْ يكونَ لكَ حمرُ النَّعَمِ[1] .

ساق سلمة بن الأكوع :

وعن يزيد بن أبي عبيدٍ قال : رأيتُ أثرَ ضربةٍ في ساقِ سلمةَ بنِ الأكوعِ فقلتُ : يا أبا مسلمٍ ما هذه الضربةُ ؟ قال : ضربةٌ أصابتني يومَ خيبر فقالَ الناسُ : أصيبَ سلمةُ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فنفثَ فيه ثلاثَ نفثاتٍ فما اشتكيتُها حتى الساعةِ[2] .

إخراجه الجن من المصروع :

وعن يعلى بن مرة الثقفي قال :

سرْنا مع رسولِ الله ﷺ فمررنا بماءٍ فأتتهُ امرأةٌ بابنٍ لها به جنةٌ فأخذَ النبيُّ ﷺ بمنخرِهِ ثم قال : « اخرجْ فإني محمدٌ رسولُ اللّهِ » ثم سرْنا فلما رجعنا مررْنا بذلك الماء فسألَها عن الصبيِّ فقالتْ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ما رأيْنا منه ريْباً بعدكَ[3] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه في شرح السنة ورواه الامام أحمد في مسنده (١٧٢/٤) بسند صحيح كما في المشكاة (١٨٨/٣) بتحقيق شيخنا محمد ناصر الدين الألباني .

إخباره بالأمور الغيبية

فمن ذلك إخباره عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وإخباره عن الملائكة وصفاتهم ، واخباره عن عالم الجن ، وعن الجنّة والنار ، ومن ذلك اخباره عن الحوادث التي وقعت ، كما أخبر عن آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم ، وهو حديث فيه تفصيل وبيان ، ومثل هذا لا يتأتى من رجل أميّ لم يكن كاتبا ولا قارئا ، ولم يخالط الذين درسوا تاريخ الأمم وعرفوا أخبارها ، ثمَّ هو يأتي بأخبار لم يبلغها علم الأمم ، وأخبار يكتمها علماء أهل الكتاب ، ويصحح لهم كثيرا مما عندهم ، وكل ذلك دليل على أنّه إنما جاء بهذه العلوم من العليم الخبير ، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ « سورة هود/ ٤٩ » .

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل في عدة مواضع ، فمن ذلك قوله في سياق قصة مريم ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ « سورة آل عمران/ ٤٤ » .

وفي سياق قصة موسى ، قال : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ « سورة القصص/ ٤٦ » .

وقد كان يخبر الأخبار المغيبة التي وقعت في حينها ، فقد أخبر باستشهاد قادة المسلمين الثلاثة في معركة مؤتة وباستلام خالد بن الوليد الراية من بعدهم في

اليوم الذي وقع فيه الحدث ، رواه البخاري[1] .

وعندما توفي النجاشي أخبر بوفاته في نفس اليوم ، وكذلك عندما توفي كسرى .

ومن ذلك اخباره بالغيوب المستقبلية ، وبعض هذه الأخبار كان يقع ويتحقق في الحال أو بعد فترة وجيزه .

فمن ذلك أنّه أخبر بالمواضع التي سيصرع فيها صناديد الكفر قبل وقوع معركة بدر ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : « فندب رسول الله ﷺ الناس ، فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ههنا وههنا ، قال : فما ماط (أي ما بعد ، وما تجاوز) أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ ، رواه مسلم[2] .

ومن هذه الغيوب التي أخبر بها ما وقع بعد وفاته ، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » رواه البخاري ومسلم والترمذي[3] . وقد وقع الأمر كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أكثر الرسول - ﷺ - من الإخبار مما سيقع في مقبل الزمان ، قال حذيفة ابن اليمان : قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ، فما ترك شيئا يكون من قيامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته ، فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه » رواه البخاري ومسلم وأبو داود[4] .

ومن ذلك ما أخبر به من الفتن وأشراط الساعة وغير ذلك ، وقد تكفلت بذكرها كتب الحديث .

---

(١) مشكاة المصابيح (١٧٢/١)

(٢) مشكاة المصابيح (١٦٧/٣)

(٣) جامع الأصول (٥٩/١٢)

(٤) جامع الأصول (٦٣/١٢)

حنين الجذع

في صحيح البخاري وغيره « كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه ، فحنّ الجذع ، فأتاه فمسح عليه » وفي رواية عند البخاري أيضا « فلما وضع المنبر : سمعنا للجذع مثل صوت العشار ، حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه »[1] .

---

(١) جامع الأصول (٦٨/١٢)

انقياد الشجر وتسليمه وكلامه[1]

عن جابر قال : سِرْنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيحَ [2]، فذهبَ رسولُ الله ﷺ يقضي حاجتَه فلم يرَ شيئاً يستَتِرُ به ، وإذا شجرتين[3] بشاطِىءِ الوادي فانطلقَ رسولُ الله ﷺ إلى إحداهما فأخذَ بغصنٍ من أغصانِها فقال : « انقادي عليَّ بإذنِ اللهِ » فانقادتْ معه كالبعيرِ المخشوشِ [4] الذي يصانعُ قائدَه ، حتى أتى الشجرةَ الأخرى فأخذَ بغصنٍ من أغصانِها فقال : « انقادي عليَّ بإذنِ الله » فانقادتْ معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصَفِ[5] مما بينهما قالَ : « التئما عليَّ بإذن الله » فالتأمتا ، فجلستُ أحدثُ نفسي فحانتْ مني لفتةٌ فإذا برسولِ الله ﷺ مقبلاً ، وإذا بالشجرتينِ قد افترقتا فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ[6] .

وعن يَعلى بن مُرةَ الثقفيِّ قال :

سِرْنا مع رسولِ الله ﷺ حتى نزلنا منزلاً فنامَ النبيُّ ﷺ فجاءتْ شجرةٌ تشقُّ الأرضَ حتى غشيتْه ثم رجعتْ إلى مكانِها ، فلما استيقظَ رسولُ الله ﷺ ذكرتُ له

---

(١) من كتاب معجزات المصطفى ص ٨٤ .

(٢) واسع

(٣) اي فوجد شجرتين .

(٤) هو الذي في أنفه الخشاش وهو عويدة تجعل في أنف البعير ليكون أسرع انقيادا .

(٥) الموضع الوسط

(٦) رواه مسلم .

فقال : هي شجرةٌ استأذنتْ ربَّها في أنْ تسلِّمَ على رسولِ الله ﷺ فأُذِنَ لها[1].

وعن أنس قال : جاءَ جبريلُ إلى النبي ﷺ وهو جالسٌ حزينٌ قد تخضَّبَ بالدم من فعلِ أهلِ مكةَ فقال يا رسولَ اللهِ هل تحبُّ أن نريكَ آيةً ؟ قال : نعم . فنظرَ إلى شجرةٍ من ورائِه فقال : ادعُ بها . فدعا بها فجاءتْ فقامتْ بين يديْه فقال : مرْها فلترجعْ فأمرها فرجعَتْ . فقالَ رسول الله ﷺ : « حسبي حسبي ».[2]

وعن ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقالَ : بمَ أعرفُ انكَ نبيٌّ ؟ قال : « إن دعوتُ هذا العذَقَ[3] من هذه النخلةِ يشهدُ أني رسولُ الله » . فدعاه رسولُ الله ﷺ فجعلَ ينزلُ من النخلةِ حتى سقطَ إلى النبي ﷺ ثم قال : « ارجعْ » فعادَ ، فأسلم الأعرابي[4] .

وعن حق بنِ عبد الرحمن قال سمعتُ أبي قال : سألتُ مسروقاً: مَنْ آذن[5] النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعوا القرآن قال : حدثني أبوكَ - يعني عَبد الله بن مسعود - أنه قال : آذَنَتْ بهم شجرةٌ[6].

وعن ابنِ عمرَ قال : كنا مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ فأقبلَ أعرابيٌّ فلما دنا قالَ له رسولُ الله ﷺ : تشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ؟ قالَ : ومنْ يشهدُ على ما تقولُ ؟ قال : هذه السَّلَمةُ[7] فدعاها رسولُ اللهِ ﷺ وهو بشاطيءِ الوادي فأقبلَتْ تخدُّ[8] الأرض حتى قامت بين يديْه فاستشهدَها ثلاثاً فشهدَت ثلاثاً أنه كما قال ثم رجعتْ إلى منبتها.[9] .

---

(١) رواه في شرح السنة ورواه أيضاً أحمد وسنده ضعيف لكن له شاهد من حديث جابر رواه الدارمي (١/ ١٠) فالقصة صحيحة كما قال شيخنا الألباني في التعليق على المشكاة (٣/ ١٨٨)

(٢) رواه الدارمي وإسناده صحيح كما في المشكاة (٣/ ١٨٨)

(٣) العنقود .

(٤) رواه الترمذي وصححه .

(٥) اي اعلم .

(٦) متفق عليه .

(٧) شجرة من أشجار البادية .

(٨) تشق .

(٩) رواه الدارمي واسناده صحيح كما قال شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (٣/ ١٨٩) .

تسليم الحجر

عن جابر بن سَمُرَةَ قالَ قالَ رسولُ الله ﷺ :

إني لأعرفُ حجراً بمكةَ كانَ يسلمُ عليَّ قبلَ أنْ أبعثَ إني لأعرفُهُ الآنَ[١] .

شكوى البعير

عن يعلى بن مرة الثقفي قال :

« بينا نحنُ نسيرُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ إذ مررْنا ببعيرٍ يُسْنَى[٢] عليه ، فلما رآهُ البعيرُ جَرْجَرَ[٣] فوضعَ جرانَهُ[٤] فوقفَ عليه النبيُّ ﷺ فقال أين صاحبُ هذا البعير ؟ فجاءه فقال : « بِعْنِيهِ » فقال بل نَهبُهُ لكَ يا رسولَ اللهِ ، وإنهُ لأهلِ بيتٍ ما لَهُمْ معيشةٌ غيرُهُ .

قال : أما إذ ذكرتَ هذا من أمره ، فانَّهُ شكا كِثرَةَ العملِ وقلةَ العلفِ ، فأحسنوا إليه[٥] .

وعن عبد اللهِ بن جعفرٍ قال : أَردفني رسولُ اللهِ ﷺ خلفَه ذاتَ يومٍ فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدثُ به أحداً من الناس ، وكانَ أحبُّ ما استترَ به رسولُ اللهِ ﷺ لحاجتِهِ[٦] هدفٌ او حائشُ[٧] نخلٍ . فدخلَ حائطاً لرجلٍ من الأنصارِ فإذا جملٌ فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفتْ عيناه فأتاهُ النبيُّ ﷺ فمسَحَ سراته[٨] الى سنامِهِ

---

(١) رواه مسلم والترمذي .

(٢) اي يستقى عليه

(٣) صاح وردد صوته في حلقه .

(٤) مقدم عنقه وقيل باطن عنقه .

(٥) رواه في شرح السنة ورواه احمد وسنده ضعيف لكن له شاهد من حديث جابر رواه الدارمي (١/ ١٠) فالقصة صحيحة كما قال شيخنا الالباني في المشكاة (٣/ ١٨٨) .

(٦) كجدار وشجرة .

(٧) اشجار مجتمعة .

(٨) السراة : الظهر .

وذفراهُ[1] . فَسَكَنَ فقالَ : مَنْ ربُّ هذا الجمَلِ ؟ لمن هذا الجملُ ؟ فجاءه فتىً من الأنصارِ فقال : لي يا رسولَ اللهِ . فقال : أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي ملَّكَكَ اللهُ إياها ؟ فإنه شكا إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدئِبُهُ[2] .

---

(1) عظم خلف الأذن .

(2) اي تتعبه والحديث رواه ابو داود والحاكم واحمد وابن عساكر واللفظ له واسناده صحيح على شرط مسلم فقد اخرجه بهذا الاسناد دون قصة الجمل (وراجع الاحاديث الصحيحة لشيخنا الألباني ٢٨/١) .

الخوارق من غير الأنبياء

كرامات الأولياء

من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات[1] الأولياء ، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات[2] .

وقد أنكر طوائف من المسلمين كرامات الأولياء ، ومن هؤلاء المعتزلة وحجتهم في دعواهم أنَّ خرق العادة لو صحَّ من غير الأنبياء لالتبس النبيّ بالوليّ ، ولم تكن المعجزة دليلاً على صدق الأنبياء[3].

وقولهم هذا مردود ، لأنَّ من كرامات الأولياء ما حدّث به القرآن ، وصحَّ ذكره في الأحاديث الصحيحة ، وتواتر النقل به ، والنّاس يشاهدون شيئا منه في كل عصر ومصر .

والشبهة التي جاؤوا بها إنّما تصحُّ إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدَّعي النبوة ، وهذا لا يقع ، ولو ادّعى النبوة لم يكن وليّاً بل كان متنبئا كذابا[4]، وقد أنكر الإمام أحمد على الذين نفوا كرامات الأنبياء ، ولم يصدقوا بها ، وضلّلهم[5] .

---

(١) يعرف علماء التوحيد الكرامة بأنها أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة لها ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، علم بها ذلك العبد أم لم يعلم (لوامع الأنوار البهية ٢/٣٩٣) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/١٥٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٦٣

(٤) المصدر السابق .

(٥) لوامع الأنوار البهية ٢/٣٩٣ .

حكمة اعطاء الكرامة للولي

يعطي الله بعض عباده أمورا خارقة للعادة إكراما لهم لصلاحهم وقوة إيمانهم ، وقديكون ذلك سدّا لحاجتهم ، كالحاجة للطعام والشراب والأمن ، وقد يعطيهم ذلك لنصرة دينه ، ورفعة كلمته ، احقاقا للحق وابطالا للباطل[1].

فمن ذلك ما حدثنا به القرآن الكريم من شأن مريم ، فقد كان يوجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيًّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ « سورة آل عمران/٣٧ » .

ومن ذلك ما جرى لأصحاب الكهف حيث ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا ، وحفظ الله أجسادهم تلك الدهور المتطاولة على النحو الذي حدثنا عنه في سورة الكهف .

ومن ذلك ما وقع لصحابة رسول الله ﷺ .

نور في العصا

فمن هؤلاء أسيد بن حُضير ، وعباد بن بشر تحدَّثا عند النبيِّ ﷺ في حاجة لهما ، حتى ذهب من الليل ساعة ، في ليلة شديدة مظلمة ، ثمَّ خرجا من عند رسول الله ينقلبان ، وبيد كل واحد منهما عصيّة ، فأضاءت عصى أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها ، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه ، فمشى كلّ واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله . رواه البخاري[2] .

---

(١) كثير من أهل الكلام لا يثبتون خوارق العادة إلا للأنبياء ، ولا يثبتونها لأحد غيرهم (شرح الطحاوية ص ١٥٨) .

(٢) مشكاة المصابيح (١٩٧/٣)

الطعام المبارك

وهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يأتي معه بثلاثة أضياف من أهل الصفَّة ، وقد كان الرسول ﷺ قد أمر المسلمين أن يضيّفوا هؤلاء ، وتركهم أبو بكر في منزله كي يضيفهم أهله ، وذهب هو إلى الرسول ﷺ ، وجاء في ساعة متأخرة ، فقالت له امرأته : ما حبسك عن أضيافك ؟ قال : أو ما عشيتهم ؟ قالت : أبوْا حتى تجيء ، فغضب ، وقال : والله لا أطعمه أبدا ، فحلفت المرأة أن لا تطعمه ، وحلف الأضياف أن لا يطعموه ، قال أبو بكر هذا من الشيطان ، فدعا بالطعام ، فأكل وأكلوا ، فجعلوا لا يرفعون لقمة الا ربت أسفلها أكثر منها ، فقال لامرأته : يا أخت بني فراس ! ما هذا ؟ قالت : وقرة عيني إنّها الآن لأكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار ، فأكلوا ، وبعث بها إلى النبي ﷺ ، فذكر أنَّه أكل منها . متفق عليه[1] .

فقد كان هذا إكراما من الله لأبي بكر لفضله ، ولأنَّه لم يشتط في غضبه إذ حلف أن لا يأكل من الطعام ، وراغم الشيطان ، فأكرمه الله بذلك .

سفينة والأسد

وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ جيش المسلمين بأرض الروم أو أسر ، فانطلق هاربا يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث (كنية للأسد) أنا مولى رسول الله ﷺ ،كان من أمري كيت وكيت ، فأقبل الأسد له بصبصة (أي تحريك بالذنب) حتى قام إلى جنبه ، كلَّما سمع صوتا أهوى إليه ، ثمَّ أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح (١٩٨/٣)

(٢) قال التبريزي في مشكاة المصابيح : رواه في شرح السنة ، وقال المحقق : ورواه الحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وهو كما قالا (مشكاة المصابيح ١٩٩/٣)

صرخة في المدينة تدوّي في الشام :

وهذا عمر بن الخطاب يبعث جيشا ، ويؤمر عليهم رجلا يدعى سارية ، وبينما عمر يخطب ، فجعل يصيح يا ساري الجبل ، فقدم رسول من الجيش ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا بصائح يصيح : يا ساري الجبل ، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل ، فهزمهم الله تعالى[1] .

(١) قال التبريزي : رواه البيهقي في دلائل النبوة وقال محقق المشكاة : ورواه ابن عساكر باسناد حسن نحوه .

جملة من كرامات الأولياء

وقد ذكر ابن تيمية جملة من هذه الكرامات غير ما تقدم نسوق إليك بعضها[1] :

فمن ذلك أن خبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى ، وكان يؤتى بعنب يأكله ، وليس بمكة عنبة .

وأم أيمن خرجت مهاجرة ، وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر ، وكانت صائمة سمعت حسّا على رأسها فرفعته ، فإذا دلو معلق ، فشربت منه ، حتى رويت ، وما عطشت بقية عمرها .

والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسمه ، وكان الحرب إذا اشتدَّ على المسلمين في الجهاد يقولون : يا براء ، أقسم على ربّك ، فيقول : يا ربّ ، أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، فيهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية ، قال : أقسمت عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم ، وجعلتني أوّل شهيد ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا .

وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا ، فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السمّ فشربه فلم يضره .

ولما عذبت « الزبيرة » على الإسلام في الله ، فأبت إلاّ الإسلام ، وذهب

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٢٧٦ - ٢٨١ .

بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلا والله ، فردَّ الله عليها بصرها .

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله ـ عز وجل ـ فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتا . ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبرا محفورا فيه لحد في صخرة ، فدفنوه فيه ، بعد أن كفنوه في تلك الأثواب .

الاستقامة أعظم كرامة

ليست الكرامة دليلا على تفضيل هذا المعطى على غيره ، فقد يعطي الله الكرامة ضعيف الإيمان لتقوية إيمانه ، ومحتاجا لسدّ حاجته ، ويكون الذي لم يعط مثل ذلك أكمل إيمانا وأعظم ولاية ، وهو لذلك مستغن عن مثل ما أعطي غيره ، ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة ، وعلى هذا فلا ينبغي أن يشغل المرء نفسه بالتطلع إلى الكرامة ، ولا ينبغي له أن يحزن إذا لم يعطها ، وقد صدق أبو علي الجوزجاني وبرّ حين قال : « كن طالبا للاستقامة ، لا طالبا للكرامة ، فإنَّ نفسك منجبلة على طلب الكرامة ، وربّك يطلب منك الاستقامة ، قال بعض من فهم قوله : وهذا أصل عظيم كبير في الباب ، وسرّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب »[1] .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٣٢٠)

الخوارق والأحوال الشيطانية[1]

ضلَّ كثير من النّاس عندما ظنّوا أنَّ كلَّ من جرت على يديه خوارق العادات فهو من أولياء الله الصالحين ، فبعض الناس يطيرون في الهواء ويمشون على الماء ، ونحو ذلك ، وهم من أفجر خلق الله ، بل قد يدَّعون النبوة ، مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان ، وادعى النبوة ، وقد أظهر أمورا خارقة للعادة ، فقد كانوا يضعون القيود في رجليه فيخرجها ، ويضرب بالسلاح فلا يؤثر فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يُري الناس رجالا وركبانا على خيل في الهواء ، ويقول : هي الملائكة ، وهذا وأمثاله من فعل الشياطين ، ولذلك إذا حضر بعض الصالحين هذه الأحوال الشيطانية وذكر الله وقرأ آية الكرسي أو شيئا من القرآن بطلت أحوالهم هذه ، فهذا الحارث الدمشقي الكذاب لما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه طاعن بالرمح ، فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنّك لم تسمّ الله ، فسمّى الله ، فطعنه فقتله[2] . والمسيح الدجال تجري على يديه أمور خارقة للعادة تذهل من يرآها وهو مع ذلك يدعى الألوهية .

فالخوارق ليست دليلا على أن صاحبها وليّ لله تعالى ، فالكرامة سببها الإيمان والتقوى والاستقامة على طاعة الله تعالى ، فإذا كانت الخارقة بسبب الكفر والشرك والطغيان والظلم والفسق فهي من الأحوال الشيطانية ، لا من الكرامات الرحمانية .

---

(١) ارجع في هذا المبحث إلى كتابنا : عالم الجن والشياطين .

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٢٨٤ - ٢٨٥)

ثانياً : بشارات الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ « سورة الشعراء/١٩٧ » فالآية تبين أنَّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ ، وصدق ما جاء به ـ علم بني إسرائيل بذلك ، وهو علم مسجل محفوظ مكتوب في كتبهم التي يتداولونها ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّه لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ « سورة الشعراء/١٩٦ » .

القرآن يتحدث عن بشارات الأنبياء السابقين بنبينا محمد ﷺ

القرآن المنزل إلينا من ربنا العليم الخبير يحدثنا أن ذكر محمد وأمته موجود في الكتب السماوية السابقة ، وأنَّ الأنبياء السابقين بشروا به ، وقد فهم جمع من المفسرين من قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُم رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكم لتؤمِنُنَّ به ، وَلَتَنْصُرُنَّه ، قَالَ أأَقْرَرْتُمْ ، وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنا مَعَكُمْ مِن الشَّاهِدِين﴾ « سورة آل عمران/٨١ » ـ أنَّ الله أخذ العهد والميثاق على كلِّ نبيٍّ لئن بُعث محمد ﷺ في حياته ليؤمنن به ويترك شرعه لشرعه ، وعلى ذلك فإن ذكره موجود عند كل الأنبياء السابقين .

دعوة إبراهيم

عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : « إني عند الله مكتوبُ خاتم النبيين ، وإنَّ آدم لمنجدل في طينته ، وسأخبركم بأوّل أمري ، دعوةُ إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤ يا أمّي التي رأت حين وضعتني ، وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام» « رواه في شرح السنة »[1] .

وقد أخبرنا الله أنَّ خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل كانا يبنيان البيت الحرام ويدعوان ، ومن دعائهما ما قصه علينا في سورة البقرة ﴿وإذ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ الْبيتِ وإِسْمَاعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْن لَكَ ، وَمِن ذُرِّيَّتِنا أمّة مُسْلِمَةً لك ، وأرنا مَناسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا إنّكَ أنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ ، رَبّنَا وَابْعَثْ فيهم رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكّيهِمْ إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ « سورة البقرة/١٢٧ ـ ١٢٩ » .

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم وابنه نبيّ الله اسماعيل ، وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة . ولا تزال التوراة الموجودة اليوم ـ على الرغم من تحريفها ـ تحمل شيئا من هذه البشارة ، فنجد فيها أنَّ الله استجاب دعاء إبراهيم في اسماعيل ، فقد ورد في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السابع عشر فقرة (٢٠) : « وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره ، وأكثره

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي ١٢٧/٣ وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : حديث صحيح

كثيرا جدّا ، اثني عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمّة عظيمة كثيرة » .

وهذا النصُّ ورد في التوراة السامرية بألفاظ قريبة جدّا مما أثبتناه هنا ، والترجمة الحرفية للتوراة العبرانية لهذا النصّ : « وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأكثره « بمأد مأد »[1] وقد ذكر ابن القيم أنَّ بعض نسخ التوراة القديمة أوردت النص كما أثبتناه هنا .

ودلالة هذه البشارة على نبينا محمد ﷺ من وجوه :

الأول : أنَّ الأمّة العظيمة عند الله لا بدَّ أن تكون مسلمة ، ولم توجد هذه الأمة من نسل إسماعيل إلاّ بعد بعثة الرسول وانتشار المسلمين في المشارق والمغارب .

الثاني : النصّ العبراني « مأد مأد » صريح في اسم الرسول ﷺ فالمترجمون ترجموه « جدّا جدّا أو كثيرا كثيرا » والصواب هو : محمد ، لأنها تلفظ بالعبراني « مؤدمؤد » واللفظ العبراني قريب من العربي .

الثالث : قوله اثني عشر رئيسا يلد ، هذا موافق لأخبار الرسول ﷺ أنه سيلي أمر هذه الأمة اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش .

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٢٥٠ ، محمد نبي الإسلام ص ٣ .

بشارة موسى

لقد جاء بني إسرائيل الخبر اليقين بالنبيّ الأميّ ، على يد نبي الله موسى منذ أمد بعيد ، جاءهم الخبر اليقين ببعثته ، وبصفاته ، ونهج رسالته ، وبخصائص ملته ، فهو النبي الأميّ ، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ، يضع عن من يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبيُّ الأميّ حين يؤمنون به ، وأتباع هذا النبي يتقون ربَّهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ويؤمنون بآيات الله . . وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأميّ ، ويعظمونه ويوقرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الذي أنزل معه « أولئك هم المفلحون » .

قال تعالى : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ « سورة الأعراف/١٥٦ ـ ١٥٧ » .

بقية هذه البشارة في التوراة

وقد بقي من هذه البشارة بقية في التوراة ، ففي سفر التثنية الاصحاح (١٨)

فقرة ١٨ ـ ١٩ قال الله لموسى : « أقيم لهم « أي لبني إسرائيل » نبيًا من وسط إخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكلّ ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه » ودلالة هذه البشارة على رسولنا ﷺ بيّنه ، ذلك أنّه من بني إسماعيل وهم إخوة بني إسرائيل فجدهم هو إسحاق ، واسماعيل وإسحاق أخوان ، ثمَّ هو أوسط العرب نسبا ، وقوله مثلك أي صاحب شريعة مثل موسى ، ومحمد ﷺ هو الذي جعل الله كلامه في فمه حيث كان أميًا لا يقرأ من الصحف ، ولكنَّ الله يوحي إليه كلامه فيحفظه ويرتله ، وهو الرسول المرسل إلى الناس كافّة ، وبنو إسرائيل مطالبون باتباعه وترك شريعتهم لشريعته ، ومن لم يفعل فإنَّ الله معذبه « ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه » . ومما يعرفنا أنَّ هذه البشارة هي بقية البشارة العظيمة التي -أوحى الله بها إلى موسى ، وأخبرنا بها القرآن الكريم ، أن هذه البشارة وردت في موقف معين عندما اختار موسى من قومه سبعين رجلا لميقات الله فأخذتهم الرجفة ، وذلك بسبب طلبهم رؤ ية الله جلَّ وعلا ، فدعا موسى ربَّه وتوسل إليه ، فبعثهم الله من بعد موتهم ،قال الله بعد توسل موسى ودعائه ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِين يَتَّقُون . . ﴾ الآيات .

وإذا رجعت إلى التوارة في سفر الخروج تجد أنَّ هذه البشارة إنما أوحى الله بها إلى موسى بعد ذهابه لميقات الله ، وتتحدث التوراة عن شيء قريب من الرجفة « وكل الشعب سمع الأصوات وصوت البوق ، ونظروا الشهب والجبل دخانا ونظر كل القوم وتشردوا ووقفوا من بعد . . » سفر الخروج الإصحاح (٢٠) من التوراة السامرية .

بشارة عيسى

وأخبرنا الله ـ سبحانه ـ أنَّ عيسى بشر برسولنا محمد ـ ﷺ ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ « سورة الصف/٦ » .

وأحمد من أسماء نبينا محمد ﷺ كما ثبت في صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ لي أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » ورواه مسلم نحوه[1] .

مثلان في التوراة والإنجيل

ضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد ﷺ ولأصحابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه ، فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظ ، فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِه ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ « سورة الفتح/٢٩ » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٦٤٦ .

بشائر التوراة

التوراة التي بين أيدي الناس اليوم محرَّفة مغيرة يدلك على ذلك هذا الاختلاف الذي تجده في أمور كثيرة بين نسخها وطبعاتها ، فهناك ثلاث نسخ للتوراة : العبرانية ، واليونانية ، والسامريّة ، وكلٌّ قوم يدَّعون أن نسختهم هي الصحيحة ، وهناك فروق واضحة بين طبعات التوراة وترجماتها . وقد أدى هذا التحريف إلى ذهاب كثير من البشارات أو طمس معالمها ، ومع ذلك فقد بقي من هذه البشارات شيء كثير ، ولا تخفى هذه البشارات على من يتأملها ، ويعرضها على سيرة رسول الله - ﷺ - متجردا من الهوى .

ذكر الرسول ﷺ باسمه في التوراة

لقد صرح بعض هذه البشارات باسم محمد ﷺ وقد اطلع بعض علماء المسلمين على هذه النصوص ، ولكنَّ التحريف المستمّر لهذا الكتاب أتى على هذه النصوص ، فمن ذلك ما ورد في سفر أشعيا[1]: « إني جعلت أمرك محمدا ، يا محمد يا قدوس الربِّ ، اسمك موجود من الأبد » وقوله إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول الرسول ﷺ : « كنت نبيّا وإن آدم لمنجدل في طينته »[2] .

وفي التوراة العبرانية في الاصحاح الثالث من سفر حبقوق[3] : « وامتلأت

---

(١) الجواب الصحيح ٣/٣٢٦ :

(٢) محمد نبي الإسلام ص ١٨ .

(٣) الجواب الصحيح ٣/٣١٣ .

الأرض من تحميد أحمد ، ملك بيمينه رقاب الأمم » .

وفي النسخة المطبوعة في لندن قديما سنة ١٨٤٨ ، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤ ، والنسخ القديمة تجد في سفر حبقوق النص في غاية الصراحة والوضوح[1] : « لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، امتلأت الأرض من حمده ، . . زجرك في الأنهار ، واحتدام صوتك في البحار ، يا محمد أدن ، لقد رأتك الجبال فارتاعت » .

ذكر الرسول ﷺ بأمر يتعلق به

وفي بعض الأحيان يذكر مكان مبعثه ، ففي سفر التثنية الاصحاح الثالث والثلاثون : « أقبل الربّ من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتجلى من جبل فاران » وسيناء هي الموضع الذي كلّم الله فيه موسى ، وساعير الموضع الذي أوحى الله فيه لعيسى ، وفاران هي جبال مكة ، حيث أوحى الله لمحمد ﷺ ، وكون جبال فاران هي مكة ، دلت عليه نصوص من التوراة . وقد جمع الله هذه الأماكن المقدسة في قوله : ﴿ والتّينِ وَالزَّيْتُونِ وطُورِ سِينِينَ ، وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ « سورة التين /١ - ٣ » .

وذكرت التوراة مكان الوحي إليه ففي سفر أشعيا الإصحاح (٢١) « وحي من جهة بلاد العرب في الوعر » . وقد كان بدء الوحي في بلاد العرب في الوعر في غار حراء .

وفي هذا الموضع من التوراة حديث عن هجرة الرسول ﷺ وإشارة إلى الجهة التي هاجر إليها « هاتوا ماءً لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء ، وافوا الهارب بخبزة ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب » وتيماء من أعمال المدينة المنورة ، وإذا نظرت في النص ظهر لك بوضوح أنه يتحدث عن هجرة الرسول ﷺ ..

وتكملة النص السابق يقول : « فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة

---

(١) محمد نبي الإسلام ص ١٨ .

الأجير يفنى كل مجد قيدار ، وبقية قسى أبطال بني قيدار تقلّ ، لأنَّ الربّ إله إسرائيل قد تكلم » .

وهذا النص يتحدث عن معركة بدر ، فإنّه بعد سنة كسنة الأجير من الهجرة كانت وقعة بدر ، وفنى مجد قيدار ، وقيدار من أولاد إسماعيل ، وأبناؤه أهل مكة ، وقد قلت قسى أبناء قيدار بعد غزوة بدر .

اشارة التوراة إلى معلم من معالم مهاجر الرسول

وأشارت بعض نصوص التوراة الى مكان هجرة الرسول ﷺ ، ففي سفر أشعيا الاصحاح (٤٢) « لترفع البريّة ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ليعطوا الربَّ مجدا . . »

وقيدار أحد أبناء اسماعيل كما جاء في سفر التكوين إصحاح (٢٥) عدد (١٣) .

وسالع جبل سلع في المدينة المنورة .

والترنم والهتاف ذلك الأذان الذي كان ولا يزال يشقُّ أجواز الفضاء كلّ يوم خمس مرات ، وذلك التكبير والتحميد في الأعياد وفي أطراف النهار وآناء الليل كانت تهتف به الأفواه الطاهرة من أهل المدينة الطيبة الرابضة بجانب سلع .

اشارة التوراة إلى أمور جرت على يديه ﷺ

وقد تذكر النصوص انتشار دعوته وبعض ما يكون من الرسول ﷺ ، ففي سفر حبقوق الاصحاح الثالث : « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران ، سلاه جلاله غطى السموات والأرض ، امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده ، وشعاع ، وهناك استنار قدرته ، قدامه ذهب الوبا ، وعند رجليه خرجت الحمّى ، وقف وقاس الأرض ، نظر ، فرجفت الأمم ، ودكت الجبال الدهريّة ، وخسفت آكام القدم » .

ففي هذه البشارة اخبار بالنصر العظيم الذي حازه الرسول ﷺ وأتباعه ،

وإخبار بانتشار دعوته في شتى بقاع الأرض ، وبأن الجبال الدهريّة وهي الدول القويّة ذات المجد القديم ستدك ، وآكام القدم وهي الدول الأقل ستخسف ، وقد تحقق ذلك كلّه ، وأشارت هذه البشارة إلى أمرين يدركهما من كان عليما بسيرة الرسول ﷺ وأخباره ، وهما : لمعان كالنور له من يده ، وذهاب الوبا من قدامه ، وخروج الحمّى من عند رجليه .

اللمعان والنور الذي شعَّ من يده

يقول النصّ : « وكان لمعان كالنور ، له من يده ، وشعاع ، وهناك استنار قدرته » ثم يقول : « وقف وقاس الأرض نظر ، فرجفت الأمم . . » والذي يبدو لي أنَّ هذا النص يتحدث عن حادثة بعينها ، وهي ما وقع منه ﷺ في غزوة الخندق ، عندما أعجزت صخرة الصحابة أثناء حفر الخندق ، فجاء الرسول ﷺ فضربها ضربة عظيمة أسقطت ثلثها وخرج منها نور فكبر الرسول ﷺ فكبر أصحابه ، ثمَّ الثانية فالثالثة ، وقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أنه رأى بالنور الأول قصور الشام ، وبالنور الثاني قصور فارس ، وبالنور الثالث ابواب صنعاء .

روى النسائي وأحمد بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال : لما كان حين أمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ بِحفر الخندق ، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، فجاء فأخذ المعول فقال : « باسم الله » ، فضرب ضربة فكسر ثلثها ، وقال: « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة » ، ثمَّ ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنّي لأبصر قصر المدائن أبيض ، ثمَّ ضرب الثالثة ، وقال : باسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : « الله أكبر » أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة[1] » .

وفي رواية الطبراني : « فضرب الصخرة وبرق منها برقة فكبّر وكبّر

---

(١) فتح الباري ٧/٣٩٧ .

المسلمون » ، وفيه « إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم . . »[1] .

تأمل النص الذي أوردناه مرة أخرى « لمعان كالنور له من يده ، وشعاع وهناك استتار قدرته . . وقف وقاس الأرض نظر . . » .

وتأمل في الأحاديث التي أوردناها أليست هذه الواقعة تأويل لتلك البشارة ؟

ذهاب الوبا وخروج الحمى

تقول هذه البشارة : « قدامه ذهب الوبا ، وعند رجليه خرجت الحمّى»، وهذه - والله - بشارة صريحة لا تحتمل تأويلا ، فالمدينة قبل مجيء الرسول - ﷺ - كانت معروفة بالحمّى ، وفي الحديث عن ابن عباس أنَّ الرسول ﷺ وأصحابه عندما قدموا مكة للعمرة - وهي العمرة المعروفة بعمرة القضاء - قال المشركون : « إنّه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمّى يثرب » رواه البخاري[2] .

وقد أصابت هذه الحمّى صحابة الرسول ﷺ أوّل قدومهم المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ ربّه كي يذهب الحمّى .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، وُعك أبو بكر وبلال . قالت : فدخلت عليهما[3] ، فقلت : يا أبت كيف تَجِدُكَ ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول :

كلُّ امرىء مُصبَّح في أهلهِ ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمّى يرفع رَأْسَه ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بوادٍ وحولي اذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مِجَنَّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر فتح الباري ٤٦٩/٣ .

(٣) دخولها على بلال كان قبل نزول آية الحجاب .

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « اللهمَّ حبب إلينا المدينة كحبنا مكّة أو أشدّ ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدِّها ، وانقل حمّاها فاجعلها في الجحفة » رواه البخاري[1] ، وزاد البخاري في آخر كتاب الحج : « ثم يقول بلال : اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء »[2] .

إذن كانت يثرب موبوأة بالحمى ، لا يكاد يدخلها أحد إلّا أصابته .

وقد استجاب الله لنبيّه ـ ﷺ ـ فنقل عنها الحمى ، وصححها ، ومنع عن المدينة الطاعون ، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل عليه السلام بالحمّى والطاعون ، فأمسكت الحمّى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون إلى الشام »[3] . وإمساكه الحمّى بالمدينة لعله كان في بداية الأمر ، ثمَّ أمر بإرسالها إلى الجحفة ، أو ان المراد بامساكها بالمدينة المنطقة التي فيها المدينة ، ذلك أن الجحفة تقع قرب المدينة . وعلى كلّ فالبشارة واضحة وقعت كما أخبرت التوراة .

---

(١) انظر فتح الباري ٢٦٢/٧ .

(٢) فتح الباري ٢٦٣/٧ .

(٣) مسند الامام أحمد (٨١/٥) .

بشارات جامعة

وفي بعض الأحيان تكون البشارات جامعة تذكر صفات الرسول ﷺ ووحي الله إليه ، وأخبار أمته ، وما ينزل اليه عليهم من نصره ، وامدادهم بالملائكة ، وشيئاً مما يعطيه الله لرسوله كالعروج به إلى السماء ونحو ذلك ، فمن ذلك ما ورد في بشائر دانيال .

قال دانيال[1] يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ : « إنّ الله يظهرهم عليكم ، وباعث فيهم نبيًا ، ومنزل عليهم كتابا ، ومملكهم رقابكم ، يقهرونكم ويذلونكم بالحقّ ، ويخرج رجال قيدار في جماعات الشعوب ، معهم الملائكة على خيل بيض ، فيحيطون بكم ، وتكون عاقبتكم النار ، نعوذ بالله من النار »

وقيدار ابن اسماعيل ، وقد انتشروا في الأرض واستولوا على الشام والجزيرة ومصر والعراق ، وقد تواترت الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض كما نزلت يوم بدر والأحزاب ، وقال دانيال مصرحا باسم محمد ﷺ : « ستنزع في قسيّك اغراقا ، وترتوي السهام بأمرك يا محمد » .

وقال دانيال أيضا : « سألت الله وتضرعت إليه أن يبيّن لي ما يكون من بني إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ، ويردّ إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك في غيرهم ؟ فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه ، فقال :

---

(١) انظر الجواب الصحيح (٣/٣٣١ ؛ ٤ /٣) .

السلام عليك يا دانيال ، إن الله يقول : إنّ بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا عليّ ، وعبدوا من دوني آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فصلّت عليهم بخت نصّر ، فقتل رجالهم ، وسبى ذراريهم ، وهدم مساجدهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم ، وأنا غير راض عنهم ، ولا مقيلهم عثرات ، فلا يزالوان في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط ، فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبيّ بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر ، وأرسلت إليها ملاكي وبشرها ، وأوحي إلى ذلك النبي ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى ، وأجعل البرَّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنته ، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلي ، وأرقيه من سماء إلى سماء ، حتى يعلو ، فأدنيه ، وأسلِّم عليه ، وأوحي إليه ، ثمَّ أردّه إلى عبادي بالسرور والغبطة ، حافظا لما استودع ، صادقا فيماأخبر، يدعو الى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، رؤوف بمن والاه ، رحيم بمن عاداه ، فيدعو قومه الى توحيدي وعبادتي ، ويخبرهم بما رأى من آياتي ، فيكذبونه ، ويؤذونه » .

يقول ابن تيمية : « ثمَّ سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه عليه الملك حتى وصل آخر امته بالنفخة ، وانقضاء الدنيا » .

ثم قال : « وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرءونها ، ويقولون : لم يظهر صاحبها بعد » .

بشارات من الانجيل

وفي انجيل متى الإصحاح (١١) عدد (١٤) « وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي ، من له أذنان للسمع فليسمع » .

وقد أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ أنه ليس بينه وبين عيسى نبي ، فيكون ايلياء الذي بشر به عيس هو محمدا ﷺ . وايليا بحساب الجمل الذي أغرمت به اليهود يساوي محمدا .

وفي انجيل يوحنا إصحاح (١٤) عدد (١٥) « إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد ، وفي اللغات الاجنبية « فيعطيكم باركليتوس » ليمكث معكم إلى الأبد » والمعنى الحرفي لكلمة « باركليتوس » اليونانيّة هو أحمد ، وهو من أسماء الرسول ﷺ[1] .

وفي اصحاح يوحنا (١٥) عدد (٢٦) « ومتى جاء المعزى الذي أرسله أنا إليكم من الآب روح الحقّ الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي » ويشهد لي لأن النبي محمد ﷺ شهد للمسيح بالنبوة والرسالة ، وروح الحقّ كناية عن الرسول محمد ﷺ ، والمعاني الواردة في هذه الترجمة الحديثة ليست دقيقة ، لأن أصلها باليونانية وهي اللغة التي ترجمت منها هذه الأناجيل ـ مكتوبة « بيركليتوس » وفي التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ ، سنة ١٨٣١ ، سنة ١٨٤٤ ، في لندن تجدها « فارقليط » وهي أقرب الى العبارة اليونانية المشار اليها[2] ، أمّا ترجمتها

(١) محمد نبي الإسلام ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ .

في الطبعات الحديثة إلى المعزى فهو من التحريف الذي ذم الله أهل الكتاب به ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ « سورة النساء/ ٤٦ » . ويلاحظ أن هناك جملة ساقطة قبل الجملة الواردة في عدد (٢٦) من هذا الاصحاح سقطت من الطبعات الحديثة ، لكنّها ورادة صراحة في الطبعات القديمة للإنجيل ، ونص هذه الجملة : « فلو قد جاء المنحمنا الذي يرسله الله إليكم » ومعنى المنحمنا الحرفي باللغة السريانية محمد [1][2]

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) وقد استقصى شيخ الإسلام فأورد تلك الروايات التي بشر بها عيسى بالنبيِّ ﷺ وبين وجه الاستدلال بها انظر الجواب الصحيح (٦/٤) .

بشارة أخرى من الإنجيل[1]

جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الحادي والعشرين :

« ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البناؤون هوذا قد صار رأس الزاوية . من قِبَل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا .

٤٣ لذلك أقول لكم أنَّ ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل اثماره .

٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه » .

وهذا الحجر إنما هو سيدنا محمد ، جاء في (صحيحي البخاري ومسلم) عن أبي هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

قال ابن القيم[2] : « وتأمل قوله [المسيح] في البشارة الأخرى : ألم تر إلى الحجر الذي أخره البناؤون صار رأساً للزاوية ، كيف تجده مطابقاً لقول النبي ﷺ : مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلا موضع لبنة

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٢٩٧ .

(٢) هداية الحيارى ٣٨١ - ٣٨٢ .

منها فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون : هلّا وضعت تلك اللبنة فكنت أنا تلك اللبنة .

وتأمل قول المسيح في هذه البشارة : إن ذلك عجيب في أعيننا . وتأمل قوله فيها : « إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى آخر » كيف تجده مطابقاً لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ « سورة الأنبياء/ ١٠٥ » وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ « سورة النور/٥٥ » .

ونحو هذا النص ما جاء في « إنجيل متى » في الإصحـــاح الثامن :

« ١١ وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » .

وهذه بشارة تشير إلى ظهور أمة الإسلام التي تأتي من المشارق والمغارب وتكون مرضية عند الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

جاء في (الفارق) : « أيها المسيحي إذا أنصفت تحكم بأن هؤلاء الذين سيأتون من مشارق الأرض ومغاربها هم الأمة المحمدية لأنكم مخاطبون حاضرون إذ ذاك والمسيح سلام الله عليه يخبر عن قوم سيأتون في مستقبل الزمن وقد أخرجكم بقوله : « وأما بنو الملكوت »[1] .

ونحو ذلك ما جاء في (إنجيل يوحنا) في الإصحـــاح الرابع :

« ٢٠ ـ ٢٤ قال لها يسوع : يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله » .

وهذا النصّ يشير إلى ظهور الدين الجديد وإنّه سيتحول مركزه عن أورشليم

---

(١) الفارق ٥٤ .

ويشير إلى تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، قبلة أصحاب الدين الجديد ويصدقه قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ . « البقرة/ ١٤٤ » .

فقد كان المسلمون أول الأمر يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس ثم نزلت الآية بوجوب اتجاههم إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة .

من إنجيل لوقا[1]

ذكر صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) أنه جاء في (إنجيل لوقا) ٢ : ١٤ « الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد » .

ولكن المترجمين ترجموها في الإنجيل هكذا :

« الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالنّاس المسرة » .
ومؤلف الكتاب يرى أنّ الترجمة الصحيحة ما ذكره هو .

يقول المؤلف أنّ ثمة كلمتين وردتا في اللغة الأصلية لم يدرك أحد ما تحتويان عليه من المعاني تماماً فلم تترجم هاتان الكلمتان كما يجب في الترجمة القديمة من السريانية .

هاتان الكلمتان هما :
أيريني ـ التي يترجمونها : السلامة .

و : أيودكيا ـ التي يترجمونها : حسن الرضا .

فالأولى من الكلمتين اللتين هما موضوع بحثنا الآن هي (أيريني) فقد ترجمت بكلمات (سلامة) (مسالمة) (سلام) .

والمؤلف يرى أن ترجمتها الصحيحة (إسلام) فيقول في ص ٤٠ : « ومن

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٣٠٠ .

المعلوم أن لفظ (إسلام) يفيد معاني واسعة جداً ويشتمل على ما تشتمل عليه ألفاظ (السلم ، السلام) (الصلح ، المسالمة) (الأمن ، الراحة) . . . . وتتضمن معنى زائداً وتأويلا آخر أكثر وأعم وأشمل وأقوى مادة ومعنى ، ولكن قول الملائكة « على الأرض سلام » لا يصح أن يكـون بمعنى الصلح العام والمسالمة ، لأنَّ جميع الكائنات وعلى الأخص الحيَّة منها ولا سيما النوع البشري الموجود على كرة الأرض دارنا الصغيرة هي بمقتضى السنن الطبيعية والنواميس الاجتماعية خاضعة للوقائع والفجائع الوخيمة كـالاختلافـات والمحاربـات والمنازعات . . . ، فمن المحال أن يعيش الناس على وجه الأرض بالصلح والمسالمة » .

ثم يستشهد بقول المسيح « ما جئت لألقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » (متى ١٠ : ٣٤) .

ويستشهد بقول آخر للمسيح : « جئت لألقي ناراً على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت ؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض ؟ كلا أقول لكم بل انقساماً » (لوقا ١٢ : ٤٩ ـ ٥٣) .

وعلى هذا فالترجمة لا تنطبق ورسالة المسيح وأقواله والصواب « وعلى الأرض إسلام » . (انظر البحث من ص ٣٨ ـ ٤٤) .

كما يرى أن (أيادوكيا) بمعنى (أحمد) لا (المسرة أو حسن الرضا) كما يترجمها القسس وذلك، لأنه لا يقال في اليونانية لحسن الرضا (ايودوكيا) بل يقال (ثليما) .

ويقول أن كلمة (دوكوته) هي بمعنى (الحمد ، الاشتهاء ، الشوق ، الرغبة ، بيان الفكر) . وها هي ذي الصفات المشتقة من هذا الفعل (دوكسا) وهي (حمد ، محمود ، ممدوح ، نفيس ، مشتهى ، مرغوب ، مجيد) .

واستشهد بأمثلة كثيرة من اليونـانية لـذلك . وقـال : أنهم يترجمـون (محمديتو) في (أشعيا ٦٤ : ١١) بـ (اندوكساهيمون) ويترجمون الصفات

منها (محمد ، أحمد ، أمجد ، ممدوح ، محتشم ، ذو الشوكة) بـ (ايندكسوس) .

واستدل بهذا التحقيق النفيس أن الترجمة الحقيقية الصحيحة لما ذكره لوقا هي (أحمد ، محمد) لا (المسرة) فتكون الترجمة الصحيحة لعبارة الإنجيل :

« الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد »[1] .

---

(١) انظر كتاب (الإنجيل والصليب) للأب عبد الأحد داود ٣٤ ـ ٥٣ .

بشارات إنجيل برنابا

هذا الإنجيل مليء بالبشارات الصريحة بالرسول المصطفى المختار ، ومما ورد فيه (ص ١٦١) : « قال الله اصبر يا محمد . . . » (ص ١٦٢) « إن اسمه المبارك محمد . . » (ص ١٦٢) : « يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم » .

رأي في إنجيل برنابا

لا شكَّ أن هذا الإنجيل من الأناجيل التي كانت معروفة قديما ، وقد ورد ذكره في كتب القرن الثاني والثالث للميلاد ، ثمَّ لم يرد له ذكر بعد ذلك ، إلى أن عثر على نسخة منه في أوائل القرن الثامن عشر الهجري ، ولا تزال هذه النسخة في مكتبة بلاط (فينّا) .

وعندما نشر هذا الكتاب أحدث ضجّة كبرى ـ في ذلك الوقت ـ في أوروبا في نوادي العلم والدين ، وقد طبعت ترجمة هذا الكتاب مرتين باللغة العربية ، الطبعة الثانية نشرتها دار القلم بالكويت .

وقد اطلعت على هذا الكتاب وأمعنت النظر فيه ، وقد تبين لي فيه رأي لم أجد أحدا قد تنبه إليه ، تبين لي أن هذا الكتاب وإن كان له أصل فقد لعبت فيه يد مسلم ، فأدخلت فيه ما ليس منه ، والذي جعلني أذهب هذا المذهب ليست تلك التعليقات العربية التي وجدت على هامش النسخة الأصلية الموجودة في

(فينّا) ، وإنّما تلك المبالغات التي وصف بها الإنجيل الرسول ﷺ ، نحن نصدّق أن يبشر الإنجيل بالرسول - ﷺ - ولكننا نستبعد كل البعد أن يكون قد شاع بين أهل الكتاب تلك الخرافات التي شاعت بين المسلمين بعد بعثة الرسول ﷺ ، ونسبوها للرسول ﷺ ، فنجد في الإنجيل هذا أنَّ الله أعطى رسوله محمد ﷺ كل شيء ، وخلق من أجله كل شيء ، وجعله قبل كل شيء ، انظر ص (٩١ ، ٩٣ ، ١١٠) ، وفي ص (١١١) يقول حاكيا كلام الرسول ﷺ : « يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت إنّك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة - والناس حبّا فيّ ليمجدوك بي أنا عبدك » .

وفي ص (١٦١) ، اصبر يا محمد لأجلك أريد أن أخلق الجنّة والعالم وجمّا غفيرا من الخلائق التي أهبها لك . . » .

وفي ص (٢٦٦) ، « هذا هو الذي لأجله خلق الله كلَّ شيء » .

وفي ص (١٥٢) يقول : « ولذلك لما خلق الله قبل كلِّ شيء رسوله » .

هذه الأقوال بدون شكّ غير صحيحة ، وهي تناقض الحقّ الذي بين أيدينا ، فالله خلق البشر والملائكة والجنَّ لعبادته « وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون » . «سورة الذاريات/ ٥٦».

وأول المخلوقات القلم كما في الحديث « أول ما خلق الله القلم » وهذه الأقوال التي فيها غلو شاعت بين المسلمين وصاغوها أحاديث نسبوها إلى الرسول ﷺ ، ومن هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث رقم ٢٨٢) وحديث « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » « حديث رقم ٣٠٢ ، ٣٠٣ » وحديث : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » « كتاب الفوائد المجموعة للشوكاني ص ٣٢٦ » .

وحديث : « لقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك علي ومنزلتك عندي ، ولولاك يا محمد ما خلقت الدنيا » (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث

الضعيفة والموضوعة ص ٣٢٥) .

وفي هذا المصدر ص ٣٣٧ حديث يقول : « خلقني الله من نوره وخلق أبا بكر من نوري » .

وإذا أنت قارنت بين ما نقلته عن إنجيل برنابا وهذه الاحاديث الضعيفة والموضوعة أدركت أن الذي أدخل هذه الأوصاف كان من هذا النوع الذي عشعشت أمثال هذه الأحاديث المكذوبة في ذهنه .

وهناك أمور أخرى منسوبة إلى الرسول ﷺ زورا ، لأنها تخالف الحقَّ الذي في أيدينا ، فمن ذلك ما ورد (ص ٢٠٩) من « أن الجحيم ترتعد لحضور الرسول عليه السلام ، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة اقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم » فهذا مخالف لصريح القرآن ﴿ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ .

ومن ذلك نقل هذا الكتاب عن عيسى قوله في (ص ٩٢) « لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله » ويقول قريبا من هذا في ص (٩٦) و ص (١٦٠) ، ومثل هذا بعيد أن يصدر عن رسول من أولي العزم من الرسل .

ومع ذلك فقد وصف الكتاب الرسول ﷺ بأمور فيها تحقير له ، ففي ص (١٠٨) يصف الرسول ﷺ بأنّه سيكون كالمخبول ، وفي ص (١٠٥) يقول : أن الله سيجرد رسوله محمد في يوم القيامة من الذاكرة .

بشارات من الأسفار العالمية الأخرى[1]

ألّف « مولانا عبد الحق قديارتي » كتابا باللغة الانجليزية وسماه :

« محمد في الأسفار العالمية » واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الاوروبية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع اقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة . . .

يقول الاستاذ عبد الحق أن اسم الرسول العربي « أحمد » مكتوبة بلفظه العربي في السامافيدا Samavida من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها ان « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » . . . وفي مواضع كثيرة من كتب البراهمة يرى المؤلف أن النبي محمداً مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذي ورد في كتاب أثارفا فيدا Atharpha vida وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زند افستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت Soeshyant » ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبو لهب Angra Mainyu ويدعو إلى إله واحد لم يكن له

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٢٠٤ .

كفواً أحد « هيج جيز باونمار » وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة « جز آخاز وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاي سوي وتن آسا وتناني ورنك وبوي است » .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام : أحد صمد ليس كمثله شيء . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبيء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود وفيها اشارة الى البادية العربية ويترجم نبذة منها إلى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، ويعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم وان نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات »[1].

---

(١) ص ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures نقلاً من كتاب (مطلع النور) للاستاذ عباس محمود العقاد ١٤ ـ ١٧ .

شيوع هذه البشارات قبل البعثة

لقد كانت هذه البشارات منتشرة قبل البعثة النبويّة ، فلم يكن أهل الكتاب يكتمونها في ذلك الوقت ، بل كانوا يذيعونها ، ويزعمون أنهم سيتابعون صاحبها عندما يبعث ، وقد حفظ لنا المسلمون بعض هذه البشارات ، ونقل لنا الأنصار من أهل المدينة أحاديث اليهود قبل البعثة عن هذه البشارات ، وقد تعرف بعض أهل الكتاب على الرسول ﷺ في صغره ، وانتفع بعض أهل الكتاب بهذه البشارات وآمنوا .

صفة رسولنا ﷺ في التوراة

روى البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة ، قال : أجل ، والله إنّه لموصوف ببعض صفته في القرآن ، ﴿ يَـأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ « سورة الأحزاب/٤٥ » وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق (الصخب : الصياح) ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا[1] .

---

(١) رواه البخاري (مشكاة المصابيح ١٢٥/٣) .

وروى الدارمي عن عطاء عن ابن سلام نحوه[1] وعن كعب وهو من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي ﷺ ، قال : « نجد مكتوبا في التوراة محمد رسول الله عبدي المختار ، لا فظٌ ولا غليظ ، ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام ، وأمته الحمّادون ، يحمدون الله في السراء والضراء ، يحمدون الله في كلّ منزلة ، ويكبرونه على كل شرف ، رعاة للشمس ، يصلُّون الصلاة إذا جاء وقتها ، يتأزرون على أنصافهم ، ويتوضئون على أطرافهم ، مناديهم ينادي في جوّ السماء ، صفهم في القتال ، وصفهم في الصلاة سواء ، لهم بالليل دويٌّ كدويّ النحل » قال التبريزي هذا لفظ المصابيح ورواه الدارمي مع تغيير[2] يسير

أين هذه البشارة في التوراة

وهذه البشارة ليست موجودة في التوراة المنتشرة اليوم بين اليهود والنصارى ، فإن كان المراد بالتوراة التوراة المعينه فتكون هذه البشارة مما اخفته يهود ، وقد تكون مخفية عندهم مما لا يطلع عليه إلّا أحبارهم[3] ، إلّا أنه قد تطلق التوراة ولا يراد بها توراة موسى ، بل يراد بها الكتب المنزلة من عند الله ، وقد يطلق على

---

(١) مشكاة المصابيح ٣/١٢٥ .

(٢) مشكاة المصابيح ٣/١٢٩ .

(٣) الذي يظهر لنا أنّه كان حتى عهد الرسول ﷺ نسخ غير محرفة من التوراة والإنجيل بدلالة قوله تعالى : (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ) ، « سورة المائدة/٤٧ » وقوله : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ﴾ « سورة المائدة/٤٣ » وقوله : ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حتى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ « سورة المائدة/٦٨ » .

فقد كانت هناك نسخ كثيرة محرفة وبعض النسخ لم يصبها التحريف ، ولكن اليهود كانوا يخفونها ، ولعلّ بعضا من هذه النسخ لا تزال إلى يومنا يخفيها بعض علماء اليهود والنصارى ، ويذكر صاحب كتاب « محمد نبي الإسلام » ص (٤٦) نقلا عن مجلة « الأيكونومست » البريطانية أنّ أوّل عمل يؤديه المرشح لوظيفة في (الكوريا) أي الإدارية المركزية للكنيسة الكاثوليكية هو أن يقسم اليمين المقدسة على كتمان كل شيء يصل إلى علمه أو يقع تحت بصره ، من معلومات خصوصا عن ثروة الكنيسة ومواردها إلى جانب ما يملكه الفاتيكان من تحف وثروة فنية تعتبر من أثمن الثروات في العالم . ولا شك أن عبارة ثروة فنية تشمل مكتبة الفاتيكان الضخمة بما تحويه من كتب في الديانة المسيحية لو تركت للبحث العلمي الحر لألقت أضواءً لامعة على حقبة مجهولة من تاريخ المسيحية في قرونها الأولى المظلمة .

الكتب المنزلة اسم القرآن ، كما في الحديث الصحيح « خفّف على داود القرآن ، فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن » والمراد به قرآنه وهو الزبور . وجاء في بعض البشارات عن هذه الأمة « أناجيلهم في صدورهم » فسمى القرآن إنجيلا ، وعلى ذلك فهذه البشارة موجودة عندهم في نبوة أشعيا ، فقد جاء فيها : « عبدي الذي سرّت به نفسي ، أنزل عليه وحيي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته في الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصمّ ، ويحيي القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطي أحدا ، يحمدالله حمدا جديدا ، يأتي من أقصى الأرض ، وتفرح البريّة وسكانها ، يهللون على كلِّ شرف ، ويكبرونه على كلّ رابية ، لا يضعف ، ولا يغلب ، ولا يميل إلى الهوى مشقح ، ولا يذلّ الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوّي الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذي لا ينطفي ، أثر سلطانه على كتفيه »[1] .

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٢٨١/٣) .

خبر ابن الهيبان

ومما حفظته لنا كتب السنة عن علماء اليهود قبل الإسلام أن رجلا من اليهود كان يدعى ابن الهيبان قدم المدينة ونزل في يهود بني قريظة قبل الإسلام بسنين ، قال راوي القصة : ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس أفضل منه ، فأقام عندنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا بين مخرجكم صدقة ، فنقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ، أو مدّين من شعير ، قال : فنخرجها ، ثمّ يخرج بنا إلى ظاهر حرثنا ، فيستسقي لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي ، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثا .

قال : ثمّ حضرته الوفاة عندنا ، فلمّا عرف أنّه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا : الله أعلم .

قال : فإنّي إنّما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظلّ زمانه ، هذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعثه الله ، فأتبعه ، وقد أظلّكم زمانه فلا تسبقنّ إليه يا معشر يهود ، فإنّه يبعث بسفك الدماء ، وسبي الذراري ، فيمن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه ، وقد انتفع بوصية ابن الهيبان مجموعة من شباب يهود بني قريظة ، وهم ثعلبة بن سعيه ، وأسيد بن سعيه ، وأسد بن عبيد ، فإنّ الرسول ﷺ ـ لما حاصر بني قريظة ـ قال هؤلاء الفتية وكانوا شبابا أحداثا : يا بني قريظة ،

والله إنّه للنبي الذي عهد إليكم ابن الهيبان ، قالوا : ليس به ، قالوا : بلى ، إنّه لهو صفته ، فنزلوا ، فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم ورحالهم[1] .

فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به

وروى أبو نعيم في دلائل النبوة باسناده عن محمد بن سلمة ، قال : لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد ، يقال له : يوشع ، فسمعته يقول - وإني لغلام في إزار - قد أظلَّكُم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت ، ثمَّ أشار بيده إلى بيت الله ، فمن أدركه فليصدّقْه ، فبعث رسول الله فأسلمنا وهو بين أظهرنا ، لم يسلم حسدا وبغيا[2] .

انتفاع عبد الله بن سلام بعلمه

وقد كان عبد الله بن سلام سيد اليهود وأعلمهم وابن سيدهم وأعلمهم ، قال : لما سمعت برسول الله وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له ، (نتوكف : ننتظر) فكنت بقباء مسرّا صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، فلمّا قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت ، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري : لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت ، قال : قلت لها : أي عمّة ، والله هو أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه بعث بما بعث به .

قال : فقالت : يا ابن أخي أهو الذي كنّا نخبر أنّه يبعث مع الساعة ؟ قال : قلت : نعم . قالت : فذاك إذاً[3] . .

وقد ذكر البخاري قصة مجيء عبد الله بن سلام إلى الرسول ﷺ واسلامه وطلبه من الرسول ﷺ أن يرسل إلى اليهود ويسألهم عنه قبل أن يعلموا بإسلامه ،

---

(١) البداية والنهاية ٣١٠/١ .
(٢) البداية والنهاية ٣٠٩/٢ .
(٣) ابن اسحاق في السيرة (البداية ٢١١/٣)

فلما جاءوا قال لهم الرسول ﷺ : « يا معشر يهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلاّ هو إنَّكم لتعلمون أنّي رسول الله حقًا ، وأنّي جئتكم بحقٍّ ، فأسلموا » قالوا ما نعلمه ، قال : « فأي رجل عبد الله بن سلام فيكم » ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : « أفرأيتم إنْ أسلم ، قالوا : حاش لله ما كان ليسلم ، قال : « يا ابن سلام ، اخرج عليهم » ، فخرج ، فقال : يا معشر يهود ، اتقوا الله الذي لا إله إلاّ هو ، إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله ، وأنَّه جاء بالحقّ . فقالوا : كذبت . فأخرجهم رسول الله ﷺ[1] .

شهادة غلام يهودي

وروى أنس بن مالك أنَّ غلاما يهوديا كان يخدم النبيَّ ﷺ ، فمرض ، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي ؟ قال : لا .

قال الفتى : بلى والله يا رسول الله ، إنّا لنجد في التوراة نعتك ومخرجك ، وإنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله » رواه البيهقي بإسناد صحيح[2] .

(١) البداية ٣/٢١١ .
(٢) الجواب الصحيح (٣/٢٨٧) .

فراسة راهب

وقد تعرف على الرسول ﷺ أحد الرهبان وهو صغير ، عندما كان في تجارة مع عمّه أبي طالب إلى الشام ، روى أبو موسى قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبيّ ﷺ في أشياخ من قريش ، فلمّا أشرفوا على الراهب هبطوا ، فحلّوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ، قال : فهم يحلّون رحالهم ، فجعل يتخللهم الراهب ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، قال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنّكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرّ ساجدا ، ولا يسجدان إلاّ لنبيّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثمَّ رجع فصنع لهم طعاما ، فلمّا أتاهم به ، وكان هو في رعية الإبل ، فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظلّه ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلمّا جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه[1] .

---

(١) الحديث رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . (انظر مشكاة المصابيح ٣/١٨٧) وقال الشيخ ناصر في تعليقه على الحديث في المشكاة : رجاله ثقات ، والحديث صحيح كما بينته في مقال نشرته في « مجلة التمدن الإسلامي » .

معرفة علماء اليهود بموعد خروج النبي ﷺ

عندما اقترب موعد خروج المصطفى ﷺ علم أهل الكتاب بذلك بأمارات كانت عندهم ، وروى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة أن الرسول ﷺ التقى بزيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة ، وكان مما أخبر به زيد الرسول ﷺ أنه رحل في طلب الدين الحق دين التوحيد فقال له حبر في الشام : إنك لتسأل عن دين ما نعلم عليه أحدا يعبد الله به إلاّ شيخ بالجزيرة .

قال فخرجت : فقدمت عليه ، فأخبرته بالذي خرجت له ، فقال : إن كلّ من رأيت في ضلالة ، ممّن أنت ؟

قلت : أنا من أهل بيت الله ، ومن أهل الشوك والقرظ .

فقال : إنه قد خرج في بلدك نبيّ ، أو خارج ، قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه واتبعه ، فرجعت فلم أحسّ شيئا بعد[1] .

كان زيد يحدّث بهذا الرسول ﷺ قبل بعثته ، ولم يكن يعلم أنَّ الذي يحدثه هو الرسول الذي ظهر نجمه ، ومات زيد قبل البعثة بسنوات .

وقد سبق ذكر خبر ابن الهيبان ، الذي خرج من الشام إلى المدينة ، فقد قال لليهود عندما حضرته الوفاة : « إنّما أخرجني توقع خروج نبيّ قد أظلّ زمانه ، هذه البلاد مهاجره » .

وفي صحيح البخاري أن هرقل كان حزّاءً ينظر في النجوم ، فنظر فقال : إن ملك الختان قد ظهر .

---

(١) الجواب الصحيح ٣/٢٨٥ .

ثالثاً : النظر في أحوال الأنبياء

إذا شئت أن تسبر غور إنسان ، وتتعرف على صدقه وأمانته ، فإنّك تنظر في قسمات وجهه ، وتحصي عليه أفعاله وأقواله ، وتراقب حركاته وسكناته ، والذين يستغلق عليك أن تصل في شأنهم إلى اليقين هم أولئك الذين لا تقابلهم إلا مقابلة سريعة ، أو أولئك الذين يخفون أنفسهم ، ويتكلفون في أقوالهم وأفعالهم فلا يظهرون على طبيعتهم .

والأنبياء والرسل كانوا يخالطون أقوامهم ، ويجالسونهم ويعاشرونهم ، ويعاملونهم في أمور شتى ، وبذلك يتسنى للناس أن يدرسوهم عن كثب ، ويتعرفوا إليهم عن قرب ، ولقد كانت قريش تسمي رسول الله ـ ﷺ ـ قبل بعثته بالأمين ، وذلك لصدقه وأمانته ، وعندما قال لهم الرسول ـ ﷺ ـ في مطلع الدعوة : لو أخبرتكم أنَّ وراء هذا الوادي خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا « رواه البخاري » وقد أرشد القرآن إلى هذا النوع من الاستدلال ﴿ **قُلْ لَوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرَاً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ « سورة يونس /١٦ » .

يقول لهم لقد مكثت فيكم زمنا ليس باليسير قبل أن أخبركم بأنني نبي ، فكيف كانت سيرتي فيكم ؟ وكيف كان صدقي إيَّاكم ؟ أفأترك الكذب على الناس ، وأكذب على ربِّ الناس ، (أفلا تعقلون) ؟ الا تعملون عقولكم لتهديكم إلى الحق ؟ !

إن المعدن الجيد يدلُّ على نفسه بنفسه ، والفاكهة الصالحة يدلُّ على صلاحها لونها وشكلها ورائحتها وطعمها ، والمصباح الرائع ضوءه يهدي إليه ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . « سورة النور/ ٣٥ » .

بعض الناس لم يحتج إلى برهان ودليل ليستدل بذلك على صدق الرسول ﷺ ، لأنَّ شخصه وحياته وسيرته هي أعظم دليل ، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق ، فإنَّ الرسول ـ ﷺ ـ عندما دعاه لم يتردد . ونظر عبد الله بن سلام في وجه الرسول ﷺ نظرة واحدة ، ولكنَّها كانت كافية لتدلّه على أنَّ هذا وجه صادق ليس بكاذب ، قدم الرسول ـ ﷺ ـ المدينة ، وخرج عبد الله بن سلام عالم اليهود مع الخارجين ينظر في وجه الرسول ـ ﷺ ـ قال : « فلما رأيت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب »[1] .

وخديجة التي عرفت الرسول زوجا وخالطته عن قرب قبل أن تعرفه نبيّا رسولا ، لم تتردد في أنَّ الله لن يخزيـه أبدا ، ولن يصيبه ضير ، ذلك أنَّ سنة الله في أمثال الرسول ﷺ أن يكرّموا ويشرّفوا ، ولذلك قالت له عندما جاءَها قائلا : لقد خشيت على نفسي وذلك بعد أن فجأه الوحي في غار حراء قالت : « كلاّ والله لا يخزيك الله أبدا ، إنّك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[2] .

هرقل وأبو سفيان

وقد أعمل هرقل ملك الروم عقله وفكره وعلمه بأحوال الرسل وصفاتهم ، فاهتدى إلى أنَّ محمدا مرسل من ربّه ، ولكنه لم يؤمن ضنّا بملكه .

أرسل الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض في عصره يدعوهم إلى الإسلام ، وكان هرقل ملك الروم من هؤلاء الذين أرسل إليهم ، فلما جاءَه كتاب الرسول ﷺ

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي في سننه وقال حديث صحيح وابن ماجه في سننه (البداية والنهاية ٣/ ٢١٠) .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١/ ٢٢) .

طلب من كان هناك من العرب ، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام ، وسألهم عن أحوال النبيّ ﷺ ، فسأل أبا سفيان ، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه ، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار .

وإليك الحوار الذي جرى بينهما يحكيه أبو سفيان .

« كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه مِنْ مَلِك ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف النّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

فقلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا ، ونحن في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال : ولم تمكنّي كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قلت : نعم .

قال : فكيف الحرب بينكم وبينه ؟

قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منّا وننال منه .

قال : فماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف والصلة .

فقال للترجمان :

قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه مَلِك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤ هم ؟ فذكرت أن ضعفاؤ هم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظنُّ أنّه منكم ، فلو أعلم أنّي أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1] .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي انظر فتح الباري ١/٣١ .

زهدهم في المتاع الدنيوي

ومما يدلُّ على صدق الرسل من خلال التأمل في سيرتهم ، أنَّ الرسل أزهد النّاس في متاع الدنيا وعرضها الزائل ، وبهرجها الكاذب ، لا يطالبون النّاس الذين يدعونهم أجرا ولا مالا ، فهم يبذلون لهم الخير لا ينتظرون منهم جزاءً ولا شكورا ، هذا أوّل الرسل يقول لقومه : ﴿ **وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللّهِ** ﴾ « سورة هود/ ٢٩ » .

وهذا آخر الرسل يأمره الله بمثل ذلك : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ « سورة الفرقان /٥٧ » .

وقص الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وكلّ منهم يقول لقومه : ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ من أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ .

رابعاً : دعوة الرسل

النظر في دعوة الرسل مجال خصب يدلنا على مدى صدقهم ، فقد جاءت الرسل بمنهج متكامل لإصلاح الإنسان ، ولإصلاح المجتمع الإنساني ، ودين كهذا يقول الذين جاؤوا به إنّه منزل من عند الله لا بدّ أن يكون في غاية الكمال ، خاليا من النقائص والعيوب، لا يتعارض مع فطرة الإنسان، وسنن الكون، وقد وجهنا القرآن إلى هذا النوع من الاستـدلال ، فقال : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ « سورة النساء/ ٨٢ » .

فكونه وحدة متكاملة يصدق بعضه بعضا ، لاتناقض فيه ولا اختلاف ـ دليل واضح على صدق الذي جاء به .

والنظر في المقاصد التي تـدعو إليها الرسل ، والفضائل والقيم التي يُنادون بها كلّ ذلك من أعظم الأدلة على صدقهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ « سورة الإسراء/ ٩ » .

ولقد ألّف العلماء مؤلفات في بيان كمال هذا الدين وشموله وبيان حكمة التشريع ، وبيان القواعد والأسس التي تجعل هذا الدين بناء محكما ، يردد النّاس النظر فيه فلا يجدون فيه عيبا ولا نقصا .

وقد ميز الله البشر بالعقل ، وأودع عقولهم إدراك قبح القبيح ، وإدراك حسن الحسن ، إلاّ أنّ رحمته جلّ وعلا اقتضت ألاّ يعذب خلقه على تركهم الحسن وفعلهم القبيح ما لم يقم عليهم الحجّة بإرسال الرسل .

وقد سئل اعرابيٌّ : بم عرفت أنَّ محمدا رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء ، فقال العقل : ليته أمر به[1] .

وهذا الذي استدل به الأعرابي في غاية الجودة ، فإن الرسل جاءت من عند الله بعلوم وشرائع يعلم العاقل المنصف عند التأمل فيها أنّه لا يمكن أن تكون آراء البشر ولا أفكارهم .

دعوة نبينا محمد ﷺ

والناظر في دعوة نبينا محمد ﷺ يكون مكابرا أعظم المكابرة إن لم يعتبر ولم يؤمن ، فنبينا عليه السلام جاء بهذا القرآن الذي عجزت الإنس والجنُّ عن الاتيان بمثله ، وقد حوى من الاخبار الماضية والآتية ، والعلوم المختلفة مايخضع المنصف ، ويجعله يسبح بحمد الله طويلا .

هذا الكتاب وتلك العلوم تصل إلينا على يد رجل أميّ ، لم يمسك بالقلم يوما ، ولم يكن يقرأ ما سطره العلماء والكتاب من قبل ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ « سورة العنكبوت/٤٨ » ليس أمرا عاديا أن يتحول رجل أميّ بين عشية وضحاها إلى معلم بشريّة ، يبذل العلم للناس ، ويقوّم علوم السابقين ، ويبين ما فيها من تحريف وتغيير .

لقد كان هذا الدليل يجول في نفوس أهل مكة ، فهم يعرفون محمدا ﷺ قبل أن يـأتيهم بما أتاهم به ، ويعلمون أميته ، ولذلك لم يكن منهم إلا التمحل وجحود الحقّ بعد معرفته ﴿فإنّهم لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ « سورة الأنعام/٣٣ » لقد وصلت بهم السفاهة إلى الزعم بأنَّ الذي يأتي محمدا ﷺ بهذا العلم حداد رومي كان بمكة ، وإنه لفرية مضحكة ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ « سورة النحل/١٠٣ » .

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٦ ـ ٧

خامسا : تأييد الله لرسله ونصرته لهم

ومما يدلنا على صدق الأنبياء والمرسلين نصرة الله لهم وحفظه إياهم ، فإنّه يستحيل على الله تعالى أن يتقول عليه متقول ، فيدعي أنّه مرسل من عند الله وهو كاذب في دعواه ، ثمّ بعد ذلك يؤيده الله وينصره ، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته ، لو فعل هذا ملك من ملوك الأرض ، فادعى مدع أنّه مرسل من قبله كذبا وزورا ، وعلم بذلك الملك المفترى عليه ، فإنّه سيلاحقه ، وإذا ظفر به فسيوقع به أشدّ العذاب ، فكيف يليق بخالق الكون العليم الحكيم أن يرى ويسمع رجلا يكذب عليه ويزعم أنّه رسوله ، ويحلل باسمه ويحرم ، ويشرع الشرائع ، ويضرب الرقاب ، ويزعم أنه يفعل ذلك بأمر الله وبرضاه ومشيئته ، ثم يؤيده الله وينصره ، ولا يوقع به عقابه وعذابه ؟ هذا لا يكون ابدا ، وإن وقع مثل هذا من كاذب مارق وظهر أمره ، وقويت شوكته يوما ، فلن يطول ذلك ، ولا بدّ أن يكشف الله أمره ، ويهتك ستره ، ويسلط عليه من يقهره ، ويجعله عبرة لغيره ، كما فعل الله بمسيلمة وسجاح والأسود العنسي من قبل[1] .

وقد أشار الله تعالى لهذا النوع من الاستدلال فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ « سورة النحل/ ١١٦ » فحكم عليهم بعدم الفلاح ، وقال : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٥ ـ ١٦٧ وقد استدل بشيء قريب من هذا ابن القيم في كتابه هداية الحيارى انظر الجامع (ص ٥٦٢)

﴿الْوَتِينَ﴾ « سورة الحاقة/ ٤٤ ـ ٤٦ » والمعنى أنَّ الرسول ﷺ لـو تقوَّل على الله ما لم يقله الله لأهلكه الله .

وهذا الدليل ذو تأثير كبير على نفوس الناس ، فإن العرب لمّا رأت انتصار الإسلام صدقت وآمنت ودخلت في دين الله أفواجا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾ « سورة النصر/١ ـ ٢ » .

شبهة

وما يذكره بعض المكذبين برسالة محمد ﷺ من أنَّ النصر تمَّ لفرعون ونمرود وجنكيزخان وغيرهم من الملوك الكفرة في القديم والحديث ، جوابه ظاهر ، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة ، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته ، ومن أطاعه دخل الجنّة ، ومن عصاه دخل النار بخلاف من ادعى أن الله أرسله ، ثمَّ يؤيده الله وينصره ، وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم فـإنّه لا يكون إلاّ رسولا صادقا ، فلو كان كاذبا فلا بدَّ أن ينتقم الله منه ، ويقطع دابره ، واعتبر في هذا بحال مسيلمة والأسود العنسي وسجاح ، واعتبر هذا بحال المسيح الدجال ، فإنّه يفتري على الله الكذب ويدعي الألوهية ، فيكشف الله ستره ، ويظهر أمره لمن كان عنده بصيرة ، فهو رجل أعور ، مكتوب بين عينيه كافر ،وإنّما يلتبس أمره على من لم يرزق نور الإيمان .

الفصل الثامن

فَضْلُ الأَنْبِيَاءِ وَتَفَاضُلُهُمْ

فضل الأنبياء على غيرهم

خلق الله الخلق وفاضل بينهم : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ « سورة القصص/٦٨ » وقد اختار من أرضه مكة ، فجعلها مقرَّ بيته العتيق الذي من دخله كان آمنا ، وجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، وأوجب على الناس الحج إليه من استطاع إليه سبيلا ، وحرّم صيده وقطع شجره ، وجعل الأعمال الصالحة فيه مضاعفة ، وجعل إرادة الظلم فيه مستحقّة العذاب الأليم ، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ « سورة الحج/٢٥ » واختار من الشهور شهر رمضان ، ومن الليالي ليلة القدر ، ومن الأيام يوم عرفة ، ومن أيام الأسبوع يوم الجمعة ، وفاضل الله بين الملائكة فاختار منهم الملائكة الذين يحملون رسالته إلى رسله وأنبيائه ، واصطفى الله من بني آدم الأنبياء ، فالأنبياء أفضل البشر ، وأفضل الأنبياء الرسل ، ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ « سورة الحج/٧٥ » .

وقد أجمعت الأمّة على تفضيل الأنبياء[1] على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

ويدلُّ على تفضيلهم قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٢١/١١ .

وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُون وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ « سورة الأنعام/٨٣ - ٨٦ » .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنّه « ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر » .

ويؤخذ من الحديث أن الأنبياء والمرسلين أفضل الخلق ، وأنَّ أفضل رجل بعدهم أبو بكر الصديق .

وقريب من هذا الحديث قول الرسول ﷺ في أبي بكر وعمر « هذان سيدا كهول أهل الجنّة من الأولين والآخرين ، إلاّ النبيين والمرسلين » وقد رتب الله عباده السعداء الذين أنعم عليهم أربع مراتب ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ « سورة النساء/٦٩ » .

فأول هذه المراتب وأعلاها الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ، ثم الصالحون .

لا مجال للمصادفة

قد يظنّ ظانٌّ أنَّ للمصادفة هنا محلاً ، وأن من الأنبياء من أصابته النبوة وهو لا يستحقها ، معاذ الله ، ولكنَّ الله العليم الحكيم الخبير نظر في معادن العباد وقلوبهم واختار منهم واصطفى الأفضل الأكمل ، وصدق الله إذ يقول : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » .

إنَّ حكمة الله وعلمه قاضيان بأن لا تمنح النبوة والرسالة إلاّ للمستعدّ لها والقادر على حملها[1]، وإذا تأملت في سيرة أنبياء الله ورسله رأيتهم أبرَّ الناس

---

(١) المهتدون بهدى الكتاب والسنة يرون أنَّ الرسل أفضل الخلق وأكملهم ، وقد اختارهم العليم الخبير كي يكونوا سفراءه إلى خلقه ،وينبغي أن نفرق بين ما جبلهم الله عليه من الفضائل والمزايا ،وبين ما أوحاه إليهم ،فالذي =

قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأحضرهم بديهـة ، وأشدّهم تحملا ، وأرقهم طباعا ، . . . فلا عجب أن يختارهم الله ليكونوا أمناء وحيه ، والعاملين على اقامة دينه ، فهم القمم السامقة التي تعجز النفوس عن أن تبلغ مداها .

= اوحى إليهم به لم يكن لهم به علم ،وليس لذكائهم وفطنتهم من شيء فيه ،ولذلك قال الله لرسوله :﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » وهذا يردّ على ذلك الصنف من الذين يزعمون أنّهم يعظمون الرسول ﷺ ، ويصفونه بالعبقريّة ، ثمّ ينسبون كلّ شيء إلى عبقريته ، حتى العلوم التي جاء بها ، وهذه خدعة ماكرة ، يريدون من ورائها إنكار الوحي ، ونسبة هذه العلوم الإلهية الربانيّة إلى العبقرية المحمديّة ، ونحن في الردّ عليهم لا نشتط فننكرُ مزايا الرسول وفضله ، ولكننا نبطل باطلهم ، ونثبت الجانب الحقّ فيه ، وهو أنّ محمدا ليس عبقريا فقط ، بل هو مع ذلك رسول ربّ العالمين .

تفضيل الأئمة على الأنبياء

وقد خالفت في هذه المسألة التي أجمعت عليها الأمّة طوائف من الذين ينتسبون إلى الإسلام ، فمن هؤلاء الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، يقول عالم من علمائهم البارزين المعاصرين[1] في هذا الموضوع : « إن من ضرورات مذهبنا أنَّ لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل »[2] وقال أيضا « ورد عنهم (أي الأئمة) : إنَّ لنا مع الله حالات ، لا يسعها ملك مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل ، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء »[3] [4].

---

(١) هو الخميني الذي فجرّ الثورة في إيران .

(٢) انظر كتاب الحكومة الإسلامية للخميني ص ٥٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) غلا الخميني في الأئمة غلوا عظيما فقد رفعهم فوق مرتبة البشر ، وعدهم في مرتبة الآلهة ، يقول في كتاب الحكومة الإسلامية ص ٥٢ : « إن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون » ولا أفهم من هذه الخلافة التكوينيّة التي تخضع لها جميع ذرات الكون إلا تلك التي حدثنا الله بها عن نفسه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ « سورة يس/٨٢ » . ويقول في الكتاب السابق أيضا : « والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله » تأمل كيف وصفهم بأنهم كانوا موجودين قبل خلق العالم ، وكان وجودهم نورا ، وكانوا محدقين بالعرش ، وكل ذلك من الغلو الشديد المخالف لصريح الكتاب والسنة .

وبعد اعداد هذا البحث وقبل دفعه الى المطبعة طالعتنا وكالات الأنباء والصحف بكلام للخميني لا يقلّ خطورة عن الكلام الذي أثبتناه من كتابه ، قاله بمناسبة ميلاد المهدي الغائب الذي تزعم الشيعة اختفاءه منذ أكثر من ألف عام ويزعمون بقاءه حيّا وأنّه سيعود مرة أخرى ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما .

وفي كلامه هذا يزعم أن الأنبياء والرسل جميعا وفيهم محمد ﷺ لم ينجحوا في اصلاح البشريّة وتنفيذ العدالة وأن الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر ، وأنه الشخص الوحيد في العالم الذي سيحقق ذلك . =

قال الألوسي رحمه الله في « مختصر التحفة ص ١٠٠ » مبينا قول الشيعة في هذه المسألة : « أجمع الإمامية على أن الأمير أفضل من غير أولي العزم من الرسل والأنبياء ، وليس بأفضل من خاتم النبيين عليه وعليهم السلام ، وأما غيره من سائر أولي العزم فقد توقف فيه بعضهم كابن المطهر الحلي وغيره ، ويعتقد بعضهم أنه مساوٍ لهم ، وهذا مخالف لما ورد عن الأئمة ، فقد روى الكليني عن هشام الأحول عن زيد بن علي أن الأنبياء أفضل من الأئمة ، وأن من قال غير ذلك فهو ضال ، وروى ابن بابويه عن الصادق ما ينصّ على أن الأنبياء أحبُّ إلى الله من عليٍّ » .

وقد ردّ الألوسي - رحمه الله - قولهم بنصوص الكتاب وبالمعقول وبتضعيف النصوص التي اعتمدوا عليها لضعف رجالها ، ولكونها معارضة للنصوص الأخرى الموجودة في كتبهم . وهي ردود شافية لمن أراد معرفة الحقّ واتباعه فارجع إليه .

وقد ترددت هذه الأقوال المفضلة للأئمة على الأنبياء في كتب الشيعة كثيرًا ، فقد ذكر علي موسى البهبهاني في كتابه مصباح الهداية في اثبات الولاية[1] « ص

= يقول في كلامه الذي نشرته بنصه صحيفة الرأي العام الكويتيّة بتاريخ (١٩٨٠/٦/٣٠) « الأنبياء جميعا جاؤ وا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم كلّه ، لكنهم لم ينجحوا ، وحتى ان النبيَّ محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشريّة وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك في عهده . . . وأن الشخص الذي سينجح في ذلك ويرسى قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم ويقوم الانحرافات هو المهدي المنتظر » .

لا والله ما ذلك بحق وليس بصدق ، فإنّ أحدا لم ينجح نجاح محمد ﷺ في تحقيق العدالة ، ولن يأتي أحد بعده يحقق ما حققه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . ويؤكد الخميني هذا المعنى فيقول : « لا يوجد في العالم أحد سوى المهدي من أجل تنفيذ العدالة بمعناها الحقيقي . . » ويقول : « إنَّ الامام المهدي عليه السلام سيعمل على نشر العدالة في جميع انحاء العالم وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم . . . » ومن هنا يرى الخميني أن عيد المهدي هو أكبر أعياد المسلمين « إن عيد المهدي هو أكبر عيد للبشرية بأجمعها » وهذا يعني أنه أعظم من عيد الفطر والأضحى ، وقد فضله على عيد مولد المصطفى ﷺ من جهة : « إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين يعتبر أكبر من عيد ميلاد النبي عليه السلام من جهة واحدة ، ويقول : « إن عيده هو عيد جميع أبناء البشريّة ، لأنّه سيهدي جميع أبناء البشر » .

وختم كلامه مفضلا إياه على غيره : « إني لا أتمكن من تسميته بالزعيم لأنّهَ أكبر وأعظم وأرفع من ذلك ، ولا أتمكن من تسميته بالرجل الأوّل لأنه لا يوجد أحد بعده ، وليس له ثان ولذلك لا اتمكن من التعبير عنه بأيِّ كلام سوى المهدي المنتظر الموعود » إننا لا نستغرب مثل هذا الكلام بعد ما قرأناه في كتاب الحكومة الإسلامية . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) هذه النقول أخذناها بمصادرها من كتاب الامامة للدكتور علي أحمد السالوس ص ١٩ .

٦١ ـ ٦٢ » أن الأمامة مرتبة فوق النبوة .

ولذلك فقد حكموا بكفر من أنكر إمامة أئمتهم أو إمامة واحد منهم ، قال ابن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق :

« اعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده أنّه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء ، واعتقادنا فيمن أَقَرَّ بأمير المؤمنين وأنكر واحدا من بعده من الأئمة أنّه بمنزلة من أقرَّ بجميع الأنبياء وأنكر نبوّة نبينا محمد » « رسالته في الاعتقادات ص ١٠٣ »

وقال المفيد : « اتفقت الإمامية على أنَّ من أنْكر إمامة أحد من الأئمة ، وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة ، فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار » بحار الأنوار للمجلسي « ٢٣ / ٣٩٠ » والمجلسي ذكر قول المفيد لتأييد رأيه .

ويرى بعضهم أنَّ إنكار الإمامة شر من إنكار النبوة ، يقول العلامة الحلي الملقب عند الجعفرية بالعلامة : « الإمامة لطف عام ، والنبوة لطف خاص ، لإمكان خلو الزمان من نبي حي بخلاف الإمام ، وإنكار اللطف العام شرٌّ من انكار اللطف الخاص » « كتاب الألفين في إمامة أمير المؤمنين للحسن بن يوسف المطهر الحلي ١ / ٣ » ، وعقب أحد علمائهم على هذا بأنّه « نعم ما قال » وأضاف : « وإلى هذا أشار الصدوق بقوله عن منكر الامامة هو شرّ الثلاثة ، فعنه أنه قال : الناصبي شرّ من اليهودي ، قيل : وكيف ذلك يا ابن رسول الله ؟ فقال : إن اليهودي منع لطف النبوة وهو خاص ، والناصبي منع لطف الإمامة وهو عام » « انظر حاشية ص ٤٣ من كتاب النافع يوم الحشر لجمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري » .

خاتم الأولياء وخاتم الأنبياء[1]

وزعم بعض المتصوفة أنَّ الولاية أفضل من النبوة ، وزعم هؤلاء أنَّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، ومن هؤلاء الذين زعموا هذا الزعم الباطل الحكيم الترمذي ، وابن عربي القائل بوحدة الوجود ، وهؤلاء كذبوا فيما ذهبوا إليه ، فلم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ أنَّ هناك خاتما للأولياء ، ولم يرد أنَّه أفضل من غيره من الأولياء فضلا عن أن يكون خيرهم ، ولم يتكلم في هذه المسألة أحد من الذين لهم باع في العلم ممن يقتدى ويتأسى بهم .

وأصل غلطهم أنَّهم نظروا فوجدوا أنَّ محمدا - ﷺ - خاتم الرسل ، وأفضل الرسل ، فقالوا : هو أفضلهم لأنَّه آخرهم ، وهذا فاسد فالتأخر والتقدم ليس عليه مدار التفضيل ، ولذلك كان إبراهيم متقدما وهو أفضل من موسى ، وإبراهيم وموسى متقدمان وهما أفضل من عيسى ، وصحَّ عن الرسول - ﷺ - أنَّ أفضل هذه الأمة صحابته الذين كانوا معه ، ولو أنَّ المسلم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه ، وثبت عنه أنه قال : « خير القرون قرني ثمَّ الذين يلونهم ، ثمَّ الذين يلونهم » .

وفي العلوم قد ينبغ المتقدم نبوغا لا يدرك شأوه المتأخر واعتبر في هذا بسيبويه في علم النحو ، وقد يكون هذا في العلوم المترقية التي يكمل المتأخر فيها

(١) راجع في هذه المسألة : لوامع الأنوار البهية ٢ / ٣٠٠ ، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢ / ٢٢٢ ، ١١ / ٢٢١ ، ٣٦٣ .

المتقدم صحيحا ، أمّا في النبوة والرسالة فالأمر مختلف ، إذ النبوة وعلومها هبة إلهية ، ومنحة ربانية ، لا تنال بالكسب والمجاهدة ، وقد فتحت هذه المقالة باب شرّ ، فأصبح كلّ من ظنَّ في نفسه خيرا ، وكلّ من أراد بهذه الأمّة شرا يزعم أنّه خاتم الأولياء ، وأنّه يأخذ علومه عن الله من غير واسطة ، وهذا ضلال كبير ، فليس لأحد من هذه الأمة أن يزعم أنّه أفضل من أحد من الأنبياء ، وليس لأحد يزعم الصلاح أن يتعبد الله بطريقة تخالف طريقة الرسول ﷺ .

تفاضل الأنبياء والرسل

أخبرنا الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ أنّه فضّل بعض النبيين على بعض ، كما قال جلّ وعلا : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاوِدَ زَبُوراً﴾ « سورة الإسراء/٥٥ »

وقد أجمعت الأمّة على أنَّ الرسل أفضل من الأنبياء ، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم كما قال تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ « سورة البقرة/ ٢٥٣ » .

أولو العزم من الرسل هم أفضل الرسل

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة : محمد ﷺ ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل ، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ « سورة الأحقاف/٣٥ » ، وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع ، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ « سورة الشورى/١٣ » .

وفي قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ . « سورة الأحزاب/٧ » .

بم يتفاضل الأنبياء والرسل ؟

الذي يتأمل في الآيتين اللتين أخبرتا بتفاضل الأنبياء والرسل يجد أن الله فَضّل مَنْ فَضّل منهم باعطائه خيرا لم يعطه غيره ، أو برفع درجته فوق درجة غيره ، أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه ، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه .

فداود عليه السلام فضله الله بإعطائه الزبور ، ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ « سورة الإسراء/٥٥ » ، واعطى الله موسى التوراة ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ « سورة البقرة/٥٣ » والكتاب هو التوراة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدَىً وَنُورٌ﴾ « سورة المائدة/٤٤ » وأعطى عيسى الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ﴾ « سورة المائدة/٤٦ » .

وقد اختص الله آدم بأنّه « أبو البشر ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له » .

وفضل نوحاً بأنّه « أوّل الرسل إلى أهل الأرض ، وسمّاه الله عبدا شكوراً » .

وفضل إبراهيم باتخاذه خليلا ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ « سورة النساء/١٢٥ » وجعله للناس اماما ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ « سورة البقرة/١٢٤ »

وفضل الله موسى برسالاته وبكلامه ، ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي

---

(١) الأنبياء والرسل يتفاوتون في الفضل كما بينا هنا بتفضيل الله لهم وبما أعطاهم إياه من خير ، وبعض الناس ينسبون إلى الأنبياء والرسل أمورا يظنون انهم يعظمونهم بها فيخرجون عن دائرة الصدق والعدل ، فمن ذلك دعاء كثير من المسلمين للرسول ﷺ قائلين : « يا أوّل خلق الله ، يا نور عرش الله » وهذا القول جمع أنواعا من الضلال ، منها دعاء الرسول ﷺ ونداءه ، وهذا لا ينبغي إلاّ لله فهو المدعو دون سواه .

ومنها الادعاء بأن الرسول ﷺ خلق من نور ، وأنه أوّل خلق الله ، وهذا لا برهان عليه إلاّ أحاديث باطلة لم يصح إسنادها ، فأوّل ما خلق الله القلم الذي كتب مقادير كلّ شيء ، والرسول ﷺ مخلوق مما خلق منه البشر ، وكونه مخلوقاً مما خلق منه البشر وانه في آخر الخلق لا يضيره ، فالمخلوقات لا تتفاضل باعتبار ما خلقت منه فقط ، فقد يخلق المؤمن من كافر ، والكافر من مؤمن ، كابن نوح منه ، وإبراهيم من آزر ، وآدم خلقه الله من طين ، فلما سوّاه ، ونفخ فيه من روحه ـ أسجد له ملائكته وفضله عليهم بتعليمه أسماء كلّ شيء ، وبخلقه إياه بيده .

وَبِكَلامِي﴾ « سورة الأعراف/١٤٤ » واصطنعه لنفسه ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ « سورة طه/٤١ » .

وفضل عيسى بأنّه رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكان يكلّم الناس في المهد ﴿إنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ « سورة النساء/١٧١ » .

ويتفاضل الأنبياء من جهة أخرى ، فالنبيّ قد يكون نبيّاً لا غير ، وقد يكون نبيّا ملكا ، وقد يكون عبدا رسولاً ، « فالنبي الذي كُذِّب ، ولم يتبع ، ولم يطع ، هذا نبيٌّ وليس بملك، أمّا الذي صدق، واتبع ، وأطيع ، فإن كان لا يأمر إلاّ بما أمره الله به فهو عبد نبي ليس بملك ، وإن كان يأمر بما يريده مباحا له فهو نبي ملك ، كما قال الله لسليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ « سورة ص/٣٩ » .

فالنبيّ الملك هنا قسيم العبد الرسول ، كما قيل للنبيّ ﷺ : « اختر إمّا عبداً رسولا ، وإمّا نبيا ملكا » وحال العبد الرسول أكمل من حال النبيّ الملك ، كما هو حال نبينا محمد ﷺ ، فإنّه كان عبدا رسولا ، مؤيدا مطاعا متبوعا ، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه ، وينتفع به الخلق ، ويرحموا به ، ويرحم بهم ، ولم يختر ان يكون ملكا ، لئلا ينقص ، لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال ، عن نصيبه في الآخرة .

فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام .

فضل الرسول الخاتم محمد ﷺ

عندما يبعث الله الأوّلين والآخرين في يوم الدين يكون رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سيّد ولد آدم ، بيده لواء الحمد ، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه ، يقول الرسول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي ، وأنا أوّل شافع ، وأوّل مشفَّع ، ولا فخر » رواه أحمد والترمذي وابن ماجة[1] .

وعندما يشتدُّ الكرب بالنّاس في ذلك اليوم يستشفع النّاس بالرسل العظام ليشفعوا إلى الله ليقضي بين عباده فيتدافعها الرسل ، كلّ واحد يقول اذهبوا إلى غيري حتى إذا أتوا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال : « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر » .

هذا فضله في ذلك اليوم العظيم ، وما ذلك إلاّ لما حباه الله به من عظيم الصفات ، وكريم الأخلاق ، والمجاهدة في الله ، والقيام بأمره ، وقد فضله الله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل ، فمن ذلك أنّه اتخذه خليلا كما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه وأبو عوانة « إنّ الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا »[2] ، وآتاه القرآن العظيم الذي لم يعط أحد من

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢/٢١)

(٢) تحقيق الطحاوية . انظر شرح الطحاوية ص ١٧٥ .

الأنبياء والرسل مثله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ « سورة الحجر/٨٧ » .

وخصّه الله دون غيره بستٍّ لم يعطها أحد من الأنبياء قبله ، ففي الحديث : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب ، وأحلّت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافّة ، وختم بي النبيون » رواه مسلم والترمذي[1] .

يخبر الرسول ﷺ بأنَّ الله فضله على غيره بست ، أوتي جوامع الكلم ، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة .

ونصر بالرعب ، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله وأتباع رسوله ﷺ .

وأحلّت له الغنائم ، وكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تجمع ثمَّ تنزل نار من السماء تحرقها .

وجعلت له ولأمّته الأرض مسجدا وطهورا ، فحيثما أدركت رجلا من هذه الأمّة الصلاة فبإمكانه أن يتوضأ فإن لم يجد يتيمم ، ثمّ يصلي في مسجد مقام ، أو في منزل أو في الصحراء .

وأرسل إلى النّاس كافّة عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم[2] ، من كان في وقت بعثته ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة : ﴿يَأَيها النَّاسُ إنّي رَسُولُ الله إلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ « سورة الأعراف/١٥٨ » .

---

(١) صحيح الجامع (٢/٢١) .

(٢) يزعم (نهرو) في كتابه لمحات من تاريخ العالم أنَّ محمدا مرسل إلى العرب خاصّة ، وهذا الزعم قال به طوائف من النصارى في القديم والحديث ، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الجواب الصحيح ، في الردّ على شبهات رجل نصراني ، واحدى تلك الشبهات التي أطال شيخ الإسلام في الرد عليها زعم ذلك النصراني أن محمدا مرسل إلى العرب دون سائر الأمم ، ويكفي في الردّ على هذه الفرية أن نبين لهؤلاء تناقضهم ، فإن اقرارهم بكونه نبيّا مرسلا يقتضي تصديقه فيما أخبر ، وقد أخبر ببعثته إلى الناس كافة ، فاذا آمنوا بأنه نبيٌّ مرسل ، ثمّ كذبوه ، وقالوا : أنت مرسل إلى العرب وحدهم ، فقد تناقضوا تناقضا بينا ، ووضح أنّ مرادهم تبرير كفرهم به .

وأرسله إلى الجنّ كما أرسله إلى الإنس ، وقد رجع وفد الجنّ بعد استماع القرآن ، والإيمان بما نزل من الحق . داعين قومهم إلى الإيمان : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ « سورة الأحقاف/٣١ ـ ٣٢ » .

والفضيلة السادسة أنّه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ « سورة الأحزاب/٤٠ » .

وإذا كان رسولنا خاتم الأنبياء فهو خاتم المرسلين ، ذلك أنّ كل نبيّ رسول .

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده يغير شرعه[1] ، ويبطل شيئا من دينه ، أمّا نزول عيسى آخر الزمان فهو حقٌّ وصدق ـ كما أخبر المصطفى ﷺ ـ ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والانجيل ، بل يحكم بالقرآن ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويؤذن بالصلاة .

---

(١) ظهر بعد بعثة الرسول ﷺ مجموعة من أدعياء النبوة ، كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح ، ولا يزال يظهر بين الفينة والفينة دعي من أمثال هؤلاء ، وقد ظهر في القرن الماضي على محمد الشيرازي (ولد سنة ١٨١٩ م) ولقب بالباب ، وأتباعه يدعون البابية ، وادعى النبوة حينا والألوهية حينا ، وسار على نهجه تلميذه الذي لقب (ببهاء الله) وأتباعه يدعون البهائية ، ومن هؤلاء الأدعياء ميرزا غلام أحمد القادياني ، وله اتباع منتشرون في الهند والمانيا وانكلترا وأمريكيا ، ولهم فيها مساجد يضلون بها المسلمين ، وكانوا يسمون بالقاديانية ، وهم يسمّون اليوم ـ أنفسهم بالأحمدية امعانا في تضليل عباد الله .

وآخر هؤلاء الأدعياء رجل ظهر في السودان يدعى أنّه نبيّ وقد تكفل الله بفضح كل من ادعى هذه الدعوى وهتك ستره . ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ « سورة يونس/٦٩ » .

النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء

وردت أحاديث تنهى المسلمين عن تفضيل بعض النبيين على بعض ، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن الرسول ﷺ ، قال : « لا تخيروا بين الأنبياء »[1] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوا بين الأنبياء[2] » . أي لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان ، يقال خيّر فلان بين فلان وفلان ، وفضل بينهما ، إذا قال ذلك .

فهذه الأحاديث لا تعارض النصوص القرآنية التي تدلُّ على أنَّ الله فضَّل بعض الأنبياء على بعض، وبعض المرسلين على بعض ، وينبغي أن يحمل النهي الذي ورد في الأحاديث على النهي عن التفضيل إذا كان على وجه الحميّة والعصبيّةوالانتقاص ، أو كان هذا التفضيل يؤدي إلى خصومة أو فتنة[3] ، يدلنا على هذا سبب الحديث ، ففي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : « استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمدا ﷺ على العالمين ـ في قسم يقسم به ـ فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي عند ذلك إلى النبي ﷺ ، فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم ، فقال : لا تخيّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون ، فأكون

---

(١) متفق عليه مشكاة المصابيح (١١٤/٣)

(٢) أخرجه البخاري مشكاة المصابيح (١١٤/٣)

(٣) راجع شرح الطحاوية ص ١٧٠ .

أوّل من يفيق ، فإذا أنا بموسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي ، أو كان مِمَّن استثنى الله »[١] .

وفي رواية عند البخاري : « لا تفضلوني على الأنبياء » ، وفي رواية « لا تخيروا بين الأنبياء » .

قال ابن حجر في هذه المسألة : « قال العلماء في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء : إنّما نهى عن ذلك من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل ، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة »[٢] .

ونقل عن بعض أهل العلم أنه قال : « الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنّما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة ، لأنَّ المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأمّا إذا كان التخيير مستندا إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي »[٣] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعد ، انظر فتح الباري (٦/٤٤١)

(٢) فتح الباري (٦/٤٤٦)

(٣) المصدر السابق ، ولمزيد من البحث راجع تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي عند تفسيرهما الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

الباب الثاني

الرِّسالاتُ السَّماوِيَّة

الفصل الأول

الإيمانُ بالرّسالاتِ

وجوب التصديق بالرسالات

من أصول الإيمان التصديق الجازم بالرسالات التي أنزلها الله إلى عباده بواسطة رسله وأنبيائه ، والتصديق بأنهم بلّغوها للناس ، قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ « سورة الأعراف/ ١٤٤ » .

وقد أثنى الله على رسله الذين يبلغون رسالاته ولا تأخذهم في الله لومة لائم ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدَاً إِلاَّ الله ﴾ « سورة الأحزاب/ ٣٩ » .

وقد كان هلاك الأمم بسبب التكذيب برسالات الله ، انظر إلى موقف صالح بعد أن حلَّ الهلاك بقومه : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ « سورة الأعراف/ ٧٩ » وموقف شعيب بعد هلاك قومه ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ . ﴾ « سورة الأعراف/٩٣ » .

الايمان بالرسالات كلها

والذي أوحاه الله لرسله قد يكون نزل من السماء مكتوبا كالتوراة التي أنزلت على موسى ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ « سورة الأعراف/ ١٤٥ »

وقد يكون كتابا ولكنه أنزل إلى الرسول بالتلاوة والمشافهة كالقرآن ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ « سورة الإسراء/١٠٦ » .

والمنزل من السماء قد يجمعه كتاب كصحف ابراهيم والكتب المنزلة على موسى وداود وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد يكون وحيا يلقى الى الرسول أو النبيّ ، وليس بكتاب ، وذلك كالوحي المنزل إلى اسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط والموحى به إلى نبينا من غير القرآن .

ويجب الإيمان بالوحي المنزل كلّه ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ « سورة البقرة/١٣٦ »

وقال الله لرسوله ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ « سورة الشورى/١٥. » وقال للمؤمنين : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ « سورة النساء/١٣٦ » . فما أعلمنا الله به تفصيلا كالكتب التي ذكرها وهي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى والقرآن المنزل على محمد ﷺ ، وكتكليم الله لموسى ، وإيحاء الله إلى صالح وهود وشعيب ، ووحي الله إلى رسوله محمد ﷺ من غير القرآن وقد تضمنته كتب السّنة ـ نؤمن به تفصيلا كما أخبر الله تعالى ، ونؤمن بأنَّ هناك كتبا ووحيا غير ذلك لم يعلمنا الله سبحانه بها .

كيف يكون الإيمان بالرسالات

ونحن نؤمن بما جاء في الكتب السماوية السابقة . وأنَّ الانقياد لها ، والحكم بها كان واجبا على الأمم التي نزلت اليها الكتب ونؤمن بأنَّ الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ، ولا يكذّب بعضها بعضا ، فالإنجيل مصدق للتوراة ، قال الله في الانجيل ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ « سورة المائدة/٤٨ » .

ومن أنكر شيئا مما أنزله الله فهو كافر ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ « سورة النساء/١٣٦ » وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ « سورة الأعراف/ ٤٠ » .

ونصدق بنسخ الشريعة اللاحقة للشريعة السابقة كليا أو جزئيا ، فقد أحل الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثمَّ نسخ هذا ، ومما كان مباحا ليعقوب أن يجمع الرجل بين اختين في الزواج وفعله يعقوب ، ثمَّ نسخ ، والإنجيل أحلَّ بعض ما حرّم في التوراة ﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ « سورة آل عمران/ ٥٠ » .

والقرآن نسخ الكثير مما في التوراة والإنجيل ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ « سورة الأعراف/١٥٧ » .

القرآن لا يكفي فيه مجرد التصديق

الإيمان بالكتب السماوية السابقة تصديق جازم بها ، ومجرد التصديق لا يكفي في القرآن ، فلا بدَّ مع التصديق من الأخذ به والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه ﴿ الٓمٓصٓ ، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ « سورة الأعراف/١ ـ ٣ » .

فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يصلنا بالله بعد بعثة الرسول ﷺ ، يقول الرسول ﷺ مخاطبا أصحابه : « أبشروا ، فإنَّ هذا القرآن بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتسمكوا به ، فإنَّكم لن تهلكوا ، ولن تضلّوا بعده أبدا » رواه الطبراني في الكبير[1] .

---

(١) حديث صحيح ، صحيح الجامع (٦٦/١) .

فالقرآن هو العصمة من الضلال والهلاك لمن تمسك به ، وقد أكثر الرسول ﷺ من حثّ الأمّة على التمسك بهذا الكتاب ، ففي احدى خطبه قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس ! فإنّما أنا بشر ، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ، ومن أخطأه ضلَّ ، فخذوا بكتاب الله تعالى ، واستمسكوا به ، وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » رواه مسلم وأحمد[1] .

والفتن التي تمرُّ بالمسلم وتعصف بالأمة لا سبيل للخلاص منها إلا بالأخذ بهذا الكتاب ، وما أجمل هذا الوصف لكتاب الله ! « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولاتشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم »[2] .

---

(١) صحيح الجامع (١/٤٢٦) .

(٢) هذا حديث رواه الترمذي وغيره قال الشيخ ناصر فيه (شرح الطحاوية ص ٦٨) : هذا حديث جميل المعنى . ولكن اسناده ضعيف ، فيه الحارث الأعور ، وهو لين ، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب ، ولعل أصله موقوف على عليّ فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ .

الفصل الثاني

مُقَارَنةُ بَيْنَ الرّسَالاتِ

أولاً : مَصْدرُهَا وَالغَايَةُ مِن إنزالِهَا

الكتب السماوية مصدرها واحد ﴿ الم الله لا إلَهَ إلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ منْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ ، وَأَنْزَلَ الفرْقَانَ ﴾ « سورة آل عمران / ١ - ٤ » والكتب السماوية كلّها أنزلت لغاية واحدة وهدف واحد ، أنزلت لتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض . تقودهم بما فيها من تعاليم وتوجيهات وهداية ، أنزلت لتكون روحا ونورا تحيي نفوسهم وتنيرها ، وتكشف ظلماتها وظلمات الحياة .

وقد عرض القرآن الكريم في موضع واحد الهدف الذي أنزل الله من أجله التوراة والإنجيل والقرآن ، وهي أعظم الكتب المنزلة من عند الله ، قال تعالى : ﴿ إنا أنزَلْنَا التَّوْرَاة فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذينَ أَسْلَمُوا لِلذِّينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيوّنَ وَٱلأحبَارُ بِمَا استُحفِظُواْ مِن كِتَابِ آلله وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ، فَلاَ تَخْشَوْا آلنَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ، وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ آللهُ فَأولئك هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ آلنَّفْسَ بِآلنَّفْسِ ، وَآلْعَيْنَ بِآلْعَيْنِ ، وَٱلأنفَ بالأنفِ ، وَالأُذُنَ بالأذنِ ، وَآلسِّنَّ بِآلسِّنِّ ، وَآلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ آللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ، وَقَفَّيْنَا عَلىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسى بن مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراةِ ، وآتَيْنَاه الإنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوراة وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلّمُتَّقِينَ ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ، وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ، وَأَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحقّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِن الكِتَاب وَمُهَيْمِناً

عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ، وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ، وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُون ، أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ « سورة المائدة/٤٤ ـ ٥٠ » .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمة[1] : « لقد جاء كلّ دين من عند الله ليكون منهج حياة ، منهج حياة واقعيّة ، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها ، ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ، ولا ليكون مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب . فهذه وتلك ـ على ضرورتهما للحياة البشريّة وأهميتها في تربية الضمير البشري ـ لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ، ما لم يقم على أساسها منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ، ويؤخذ بها بحكم القانون والسلطان ، ويؤاخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات .

والحياة البشرية لا تستقيم إلّا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد ؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك ، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة .

فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقي . . حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطات لغيره في الأنظمة والشرائع . . وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا . . حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين

---

(١) انظر الجزء السادس من ظلال القرآن ص ٨٩٥ .

مختلفين . . وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ « سورة الأنبياء/٢٢ » . ﴿ ولَو اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ « سورة المؤمنون/٧١ » . . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة الجاثية/١٨ » .

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشريّة كافّة في جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة ، إلى جانب العقيدة التي تنشىء التصور الصحيح للحياة ، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله . . وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله . حيثما جاء دين من عند الله . لأنَّ الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة .

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى ، التي ربما جاءت لقرية من القرى ، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل ، في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة . . وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى . . اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . .

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصددها في هذه الفقرة :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيها هُدًى وَنُورٌ ﴾ :

فالتوراة ـ كما أنزلها الله ـ كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله . وطريقهم في الحياة . . وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى ، وتحمل كذلك شريعة :

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ، لِلَّذِينَ هَادُوا ، والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونوراً للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب . ولكن كذلك لتكون هدى ونوراً بما فيها من شريعة تحكم

الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة في إطار هذا المنهج . ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ؛ فليس لهم في أنفسهم شيء ؛ إنما هي كلها لله ؛ وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى في خصيصة من خصائص الألوهية - وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل - يحكمون بها للذين هادوا - فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه - كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار ، وهم قضاتهم وعلماؤهم . وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله ، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم ، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم . . »

وبدون الرسالة السماوية سيبقى البشر مختلفون تائهون لا يتفقون على سبيل ، ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ « سورة البقرة/٢١٣ » .

ثانيًا : الرِّسَالَةُ العَامَّةُ وَالرِّسَالَةُ الخَاصَّةُ

الرسالات السماوية السابقة أنزلت لأقوام بأعيانهم ، والرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتم الأنبياء والرسل رسالة عامّة للبشرية كلّها ، وهذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة عن غيرها من الرسالات بما يجعلها صالحة لكلّ زمان ومكان ، وقد جعلها الله كذلك ، وأنزل على رسوله ﷺ قبيل وفاته ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ « سورة المائدة/٣ » .

وقد بيّن سيد قطب ـ رحمه الله ـ هذا المعنى وجلاه في تفسيره لهذه الآية ، قال : «إنّ المؤمن يقف أمام إكمال هذا الدين ، يستعرض موكب الإيمان ، وموكب الرسالات ، وموكب الرسل ، منذ فجر البشرية ، ومنذ أوّل رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة ، رسالة النبيّ الأميّ إلى البشر أجمعين . . فماذا يرى ؟ يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل ، موكب الهدى والنور ، ويرى معالم الطريق على طول الطريق ، ولكنه يجد كل رسول ـ قبل خاتم النبيين ـ إنما أرسل إلى قومه ، ويرى كلّ رسالة ، قبل الرسالة الأخيرة ـ إنّما جاءَت لمرحلة من الزمان . . رسالة خاصة ، لمجموعة خاصة ، في بيئة خاصة . . ومن ثمّ كانت تلك كلّ الرسالات محكومة بظروفها هذه ، متكيفة بهذه الظروف ، كلّها تدعو إلى إله واحد ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد ـ فهذا هو الإسلام ـ ولكن لكلّ منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف .

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالته الى البشر أرسل إلى الناس كافة رسولا خاتم

النبيين برسالة « للإنسان » لا لمجموعة من الأناس في بيئة خاصة ، في زمان خاص ، في ظروف خاصة . . رسالة تخاطب « الإنسان » من وراء الظروف والبيئات والأزمنة ، لأنّها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ، ولا تتحور ، ولا ينالها التغيير : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ « سورة الروم/ ٣٠ » ، وفصّل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة « الإنسان » من جميع أطرافها ، وفي كلّ جوانب نشاطها ، وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان . . وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلّية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة « الإنسان » منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر ، وتنمو ، وتتطور ، وتتجدد ، حول هذا المحور وداخل هذا الإطار »[1] .

وهذا المعنى ـ وهو كمال الرسالة وشمولها ـ أشار اليه القرآن في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ « سورة النحل/ ٨٩ » وقال جلّ وعلا : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « سورة الأنعام/ ٣٨ » .

لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة ، وفاقتها كمالا وجلالا ، يقول الحسن البصري رضي الله عنه : « أنزل الله مائة وأربعة كتب ، أودع علومها أربعة : التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان (القرآن) ثمّ أودع علوم الثلاثة الفرقان »[2].

(١) في ظلال القرآن ٤٨٢/٦ .

(٢) الإكليل للسيوطي (أضواء البيان ٣٣٦/٣) .

ثالثاً : حفظ الرسالات

لما كانت الرسالات السابقة مرهونة بوقت وزمان فإنها لا تخلد ولا تبقى ، ولم يتكفل الله بحفظها ، وقد وكل حفظها إلى علماء تلك الأمة التي أنزلت عليها ، فالتوراة وكل حفظها إلى الربانيين والأحبار ، ﴿ والرَّبَّانِيّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ « سورة المائدة/٤٤ » .

ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ كتابهم ، وخان بعضهم الأمانة فغيروا وبدلوا وحرفوا ، وحسبك أن تطالع التوراة لترى ما فيها من تغيير وتبديل ، لا في الفروع ، بل في الأصول ، فقد نسبوا إلى الله ما يقشعر الجلد لسماعه ، ونسبوا إلى الرسل ما يترفع الرعاع عن نسبته إليهم[١] .

أمّا هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفل هو بحفظها ، ولم يكل حفظها إلى البشر ،

---

(١) بينا شيئا من افتراءات اليهود على الله في الجزء الأول من هذه السلسلة ، وبينا شيئا من افتراءاتهم على الرسل في الباب السابق « الرسل » وسأورد هنا مثالا واحدا من تحريف اليهود ، وهذا التحريف جعل التوراة متناقضة ، النصّ الأصلي في التوراة هو « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه واذبحه » ، هذا الابن هو إسماعيل ، ولكن اليهود كبر عليهم أن يذهب إسماعيل وأبناؤه وهم العرب بهذا الفضل ، فأقحموا في النص كلمة « إسحق » لينسبوا الفضل لأنفسهم ، فأصبح النصّ في التوراة ـ المحرفة ـ التي بين أيديهم اليوم « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق واذبحه » سفر التكوين ، الإصحاح الثاني ، فقرة (٢) . ولكن هذا الذي حرّف النصّ هنا لم ينتبه إلى التناقض الذي أوجده مع نصوص أخرى في التوراة ، فقد ورد في التوراة أن إسماعيل ولد لإبراهيم وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة ، انظر الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين ، وعلى ذلك يكون إسماعيل هو ولده وحيده ، أما إسحق فتقول التوراة أنه ولد « وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحق » الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين فقرة (٥) . أرايت كيف فضح الله مكرهم وكيدهم وأظهر تحريفهم وتبديلهم ، وقد ذكرت شيئا من هذا التحريف في أدلة صدق الرسل « البشارات » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ « سورة الحجر/٩ » .

وانظر اليوم في هذا العالم شرقه وغربه لترى العدد الهائل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب[1] ، بحيث لو شاء ملحد أو يهودي أو صليبي تغيير حرف منه فإنَّ صبياً صغيرا ، أو ربّة بيت ، أو عجوزا لا يبصر طريقه - يستطيعون الردّ عليه وبيان خطئه ، وافترائه ، ناهيك عن العلماء الذين حفظوه وفقهوا معانيه ، وتشبعوا بعلومه . .

وانظر إلى تاريخ هذا الكتاب وكم نال من عناية ورعاية في تدوينه وتفسيره وإعرابه وقصصه واخباره وأحكامه .

ما كان ذلك ليكون لولا ذلك الحفظ الإلهي الرباني ، وسيبقى هذا الكتاب إلى أن يأذن الله بزوال هذا الكون ودماره .

---

(١) كان من أسباب هذا الحفظ تيسير الله لتلاوة القرآن وحفظه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ « سورة القمر/٢٢ » .

رابعًا : مواضع الاتفاق والاختلاف في الرسالات السماوية

الدين الواحد

الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعا منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير ، ولذلك فإنها تمثل صراطا واحدا يسلكه السابق واللاحق ، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أنّ الدّين الذّي دعت إليه الرسل جميعا واحد هو الإسلام ، ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ « سورة آل عمران/١٩ » ، والإسلام في لغة القرآن ليس إسما لدين خاص ، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء ، فنوح يقول لقومه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ « سورة يونس/٧٢ » ، والإسلام هو الدُّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ « سورة البقرة/١٣١ » ويوصي كُلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءَه قائلا : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ « سورة البقرة/١٣٢ » وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ « سورة البقرة/١٣٣ » وموسى يقول لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ « سورة يونس/٨٤ » والحواريون يقولون لعيسى : ﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ « سورة آل عمران/٥٢ » وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّه الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ « سورة القصص/٥٣ » .

فالإسلام شعار عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمديّة .

كيف يتحقق الإسلام

الإسلام هو الطاعة والانقياد والاستسلام لله تعالى ، بفعل ما يأمر به ، وترك ما ينهى عنه ، ولذلك فإنَّ الإسلام في عهد نوح يكون باتباع ما جاء به نوح ، والإسلام في عهد موسى يكون باتباع شريعة موسى ، والإسلام في عهد عيسى يكون باتباع الانجيل ، والإسلام في عهد محمد ﷺ يكون بالتزام ما جاء به الرسول الكريمﷺ .

لبُّ دعوات الرسل

ولبُّ دعوات الرسل وجوهر الرسالات السماوية هو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ ما يعبد من دونه ، وقد عرض القرآن هذه القضية وأكدها في مواضع متعددة ، مرة يذكر دعوة الرسل فنوح يقول لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلـهٍ غيره ﴾ « سورة الأعراف /٥٩ » ، وإبراهيم قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ « سورة العنكبوت/١٦ » وهود قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرَهُ ﴾ « سورة الأعراف/٦٥ » ، وصالح قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرَهُ ﴾ « سورة الأعراف/٧٣ » .

ومرة ينص على أنّه أرسل الرسل جميعا بهذه المهمة الواحدة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاّ نُوحِي إلَيْهِ أنَّه لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ « سورة الأنبياء/٢٥ » . ومرة يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ، ويجعل منهم أمة واحدة لها إله واحد ﴿ إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ « سورة الأنبياء/٩٢ » ، ومرة يجعل الاستجابة لله وتحقيق العبودية له هي الدين والملّة ويجعل من رفضها يحكم على نفسه بالسفه والضلال ، ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ « سورة البقرة/ ١٣٠ » ، وملة إبراهيم عليه السلام حددها بقوله : ﴿ إنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً ، وَمَا أنَا مِنَ الْمُشْرِكينَ ﴾ « سورة الأنعام/٧٩ » .

ومرة يبين أنها وصية الرسل والأنبياء لمن بعدهـم ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً . ﴾[1] « سورة البقرة/١٣٣ » .

ومرة ينص على وحدة الدين الذي شرعه للرسل العظام : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ « سورة الشورى/١٣ » .

الرسالات السابقة تبين الأسباب الموجبة لعبادة الله

ولم تكتف الرسالات السابقة بالدعوة الى عبادة الله وحده ، بل بينت الأسباب التي تجعل هذه الدعوى هي الحق الذي لا محيص عنه ، وذلك بذكر خصائص الألوهية ، وبالحديث عن نعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده ، وبتوجيه الأنظار والعقول للنظر في ملكوت السموات والأرض ، فنوح يقول لقومه : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ، وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ « سورة نوح/١٣ ـ ٢٠ » .

وهذا المعنى يتردد في صحف إبراهيم وموسى ، وقد ورد فيهما كما أخبرنا القرآن ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ « سورة النجم/٤٢ ـ ٥٢ » .

---

(١) ثبت في السنة أن نوحا أوصى ولده بمثل ذلك ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ نبيّ الله نوحا ـ ﷺ ـ لما حضرته الوفاة ، قال لابنه : إني قاص عليك الوصية : آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بلا إله إلاّ الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفّه ، ووضعت لا إله إلاّ الله في كفّه رجحت بهنّ لا إله إلاّ الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كنّ حلقة مبهمة (مغلقة) ، قصمتهنّ (كسرتهنّ) لا إله إلاّ الله ، وسبحان الله وبحمده ، فإنّها صلاة كلّ شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر » رواه البخاري في الأدب المفرد ص ٥٤٨ ، وأحمد ٢/١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٢٥ ، والبيهقي في الأسماء (٧٩ هندية) (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٣٤) .

المبادىء الخالدة

مسائل العقيدة

وليست الدعوة إلى عبادة الله وحده هي القضية الوحيدة التي اتفقت فيها الرسالات ، فأماكن الاتفاق كثيرة ، فمن ذلك أمور الاعتقاد التي تشكل تصورا واحدا وأساسا واحدا لدى جميع الرسل وأتباعهم ، فأوّل الرسل نوح ذكّر قومه بالبعث والنشور فمما قاله لقومه : ﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ، وَيُخْرِجُكُم إِخْرَاجاً ﴾ « سورة نوح/١٧ - ١٨ » . وأعلمهم بالملائكة والجنّ ، ولذلك قال الكفار من قومه : ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوَ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ « سورة المؤمنون/٢٤ - ٢٥ » والايمان باليوم الآخر واضح في دعوة إبراهيم ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ، ثُمَّ اضْطُرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . . ﴾ « سورة البقرة/١٢٦ » ، وفي دعوة موسى أشدُّ وضوحا ، ولذلك نرى السحرة عندما يخرون سجّدا يقولون لفرعون : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيْهَا وَلاَ يَحْيَى ، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوَلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ « سورة طه/٧٣ - ٧٦ » .

وجاء في صحف إبراهيم وموسى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبَقَى ﴾ « سورة الأعلى/١٦ - ١٧ » وكل الرسل والأنبياء انذروا أممهم

المسيح الدجال ، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله من نبيّ إلاّ أنذر أمته الدجال، أنذره نوح والنبيون من بعده » رواه البخاري في صحيحه[1] .

القواعد العامة

والكتب السماوية تقرر القواعد العامّة التي لا بدَّ أن تعيها البشرية في مختلف العصور كقاعدة الثواب والعقاب ، وهي أنَّ الإنسان يحاسب بعمله ، فيعاقب بذنوبه وأوزاره ، ولا يؤاخذ بجريرة غيره ، ويثاب بسعيه ، وليس له سعي غيره ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ « سورة النجم/٣٦ - ٤١ »

ومن ذلك أن الفلاح الحقيقي يتحقق بتزكية النفس بمنهج الله والعبودية له ، وايثار الآجل على العاجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ « سورة الأعلى/١٤ - ١٩ » .

ومن ذلك أنَّ الذي يستحق وراثة الأرض هم الصالحون ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ « سورة الأنبياء/١٠٥ » .

وقد سأل أبو ذر رضي الله عنه الرسول ﷺ عن محتويات صحف إبراهيم وصحف موسى ففي الحديث الذي يرويه ابن حبان والحاكم عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : « كانت أمثالاً كلّها : أيها المسلط (أي الحاكم النافذ السلطان) المبتلى (المختبر) المغرور ، إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ،

---

(١) صحيح الجامع (١٣٣/٥) وانظر فتح الباري (٣٧٠/٦) .

ولكني بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم ، فإنّي لا أردها وإن كانت من كافر .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عزوجل ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألاّ يكون ظاعنا (مرتحلا) إلاّ لثلاث : تزود لمعاد ، أو لمعاش ، أو لذة في غير محرّم .

وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله ، قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه .

قلت : يا رسول الله : فما كانت صحف موسى ؟

قال : كانت عبرا (عظات) كلّها :

عجبت لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ، ثمّ هو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ، ثمّ هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثمّ اطمأنّ إليها ، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » .

والقرآن يخبرنا أنّ الرسل جميعا حملوا ميزان العدل والقسط ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ « سورة الحديد/ ٢٥ » وأنهم أمروا بأن يكسبوا رزقهم بالحلال ﴿ يَـأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ « سورة المؤمنون/ ٥١ » وكثير من العبادات التي نقوم بها كانت معروفة عند الرسل السابقين وأتباعهم ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ ﴾ « سورة الأنبياء/٧٣ » . وإسماعيل عليه السلام ﴿ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ . . ﴾ « سورة مريم/ ٥٥ » وقال الله لموسى عليه السلام ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ « سورة طه/ ١٤ » ، وقال عيسى ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ « سورة مريم/ ٣١ » . والصوم مفروض على من قبلنا كما هو مفروض علينا ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « سورة البقرة/١٨٣ » .

والحج فرضه إبراهيم عليه السلام ، فقد أمره الله بعد بناء الكعبة فنادى

بالحج ، ﴿ وأذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ يَأْتوكَ رِجَالاً . . ﴾[1] « سورة الحج/٢٧ » ، وقد كان لكلّ أمة مناسكها وعبادتها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ « سورة الحج/٣٤ » ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ « سورة الحج/٦٧ » .

ومما اتفقت فيه الرسالات أنّها بينت المنكر والباطل ودعت إلى محاربته وازالته ، سواءً أكان عبادة أوثان ، أو استعلاء في الأرض ، أو انحرافا عن الفطرة كفعل قوم لوط ، أو عدوانا على البشر وأحوالهم بقطع الطريق والتطفيف بالميزان .

---

(١) كان من هدى الأنبياء بعد ذلك الحج الى البيت العتيق فقد حج البيت موسى ويونس ، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال سرنا مع رسول ﷺ بين مكة والمدينة ، فمررنا بواد ، فقال : « أيُّ واد هذا ؟ » فقالوا : وادي الأزرق . قال : « كأني أنظر إلى موسى » فذكر من لونه وشعره شيئا ، « واضعا أصبعيه في أذنيه ، له جؤار الى الله بالتلبية ، مارّا بهذا الوادي » . قال : ثمَّ سرنا حتى أتينا على ثنيّة (الثنيّة : الطريق بين الجبلين) . فقال : « أيّ ثنيّة هذه » ؟ فقالوا هرش أو لفت ـ فقال : « كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء ، عليه جبة صوف ، خطام ناقته خُلْبة (الخطام الزمام ، والخُلبة : ليفة نخل) مارّا بهذا الوادي ملبيا » . (انظر مشكاة المصابيح ٣/١١٦) .

اختلاف الشرائع

إذا كان الدين الذي جاءت به الرسل واحدا وهو الإسلام فإن شرائع الأنبياء مختلفة ، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى في بعض الأمور ، وشريعة محمد ﷺ تخالف شريعة موسى وعيسى في أمور ، قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ « سورة المائدة /٤٨ » والشرعة هي الشريعة وهي السنة ، والمنهاج الطريق والسبيل . وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافا كليّا ، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية ، وقد سبق ذكر النصوص التي تتحدث عن تشريع الله للأمم السابقة الصلاة والزكاة والحج ، وأخذ الطعام من حلّه وغير ذلك ، والاختلاف بينها إنّما يكون في بعض التفاصيل .

فأعداد الصلوات وشروطها وأركانها ومقادير الزكاة ومواضع النسك ونحو ذلك قد تختلف من شريعة إلى شريعة ، وقد يحلّ الله أمرا في شريعة لحكمة ، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة .

ونضرب لهذا ثلاثة أمثلة :

الأول : الصوم : فقد كان الصائم يفطر بغروب الشمس ، ويباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم ، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني ، فخفف الله عن هذه الأمة وأحله من الغروب إلى الفجر سواءً أنام أم لم ينم . قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ . عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ

أَنْفُسَكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . . ﴾ « سورة البقرة /١٨٧ »

الثاني : ستر العورة حال الاغتسال لم يكن واجبا عند بني إسرائيل ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم « كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى يغتسل وحده »[١] .

الثالث : « الأمور المحرمة ، فمما أحلّه الله لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثمَّ حرّم الله هذا بعد ذلك ، وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرّم الله مثل هذا في التوراة على بني إسرائيل ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثمَّ حرّم عليهم في التوراة ، وحرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبان الإبل »[٢] ، والسبب في ذلك كما ثبت في الحديث « أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا ، وطال سقمه ، فنذر لله لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها »[٣] ، وهذا الذي حرمه إسرائيل حرّمه الله على بني إسرائيل وحُرّم في التوراة ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ « سورة آل عمران /٩٣ »

ومما حرّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ « سورة الأنعام/١٤٦ » .

فقد حرّم الله عليهم كلَّ ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٤/١٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٧٣ .

(٣) رواه أحمد في مسنده (تفسير ابن كثير ٢/٧١ .

الأصابع كالإبل والنعام والوز والبط ، وحرّم عليهم شحوم البقر والغنم إلاّ الشحم الذي على ظهور البقر والغنم ، أو ما حملت الحوايا وهو ما تحوي في البطن وهي المباعر والمرابض ، أو ما اختلط بعظم .

وهذا التحريم لم يكن سببه خبث المحرّم إنما سببه التزام من أبيهم يعقوب في بعض المحرمات فألزم أبناءه من بعده بمثل ذلك ، وبعض المحرمات سببه ظلم بني إسرائيل ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ « سورة الأنعام /١٤٦ » وقال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً ﴾ « سورة النساء/ ١٦٠ » .

ثمَّ جاء عيسى فأحلَّ لبني إسرائيل بعض ما حرّم عليهم ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ « سورة آل عمران / ٥٠ » ، وجاءت الشريعة الخاتمة لتكون القاعدة إحلال الطيبات وتحريم الخبائث .

الأنبياء إخوة لعلّات

وقد ضرب الرسول - ﷺ - مثلا لاتفاق الرسل في الدين الواحد واختلافهم في الشرائع ، فقال : « الأنبياء إخوة من علّات ، أمهاتهم شتّى ، ودينهم واحد »[(١)] .

قال ابن حجر « الأنبياء أولاد علّات ، وفي رواية عبد الرحمن المذكورة « أي في صحيح البخاري » : « والأنبياء إخوة لعلّات » والعلّات بفتح المهملة : الضرائر ، وأولاد العلات الإخوة من الأب ، وأمهاتهم شتى ، ومعنى الحديث : أنَّ أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع »[(٢)] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود (صحيح الجامع ٢/ ١٤) .
(٢) فتح الباري ٦/ ٤٨٩ .

خامسًا : الطول والقصر ووقت النزول

القرآن الكريم أطول الكتب السماوية وأشملها ففي الحديث : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضّلت بالمفصّل » رواه الطبراني في الكبير(١) .

والكتب السماوية المعروفة لنا كلّها أنزلت في شهر رمضان ، فقد جاء في الحديث : « أنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين - من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان ، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » رواه الطبراني(٢) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير (١/٣٥٠) وقال المحقق : اسناده صحيح .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٨/٢ وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : اسناده حسن .

موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة

بين الله هذا في جزء من آية في كتابه ، قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ « سورة المائدة/٤٨ » .

وكون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب تحقق من وجوه :

الأول : أن الكتب السماوية المتقدمة تضمنت ذكر هذا القرآن ومدحه ، والإخبار بأنَّ الله سينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله على الصفة التي أخبرت بها الكتب السابقة تصديقا لتلك الكتب ، مما زادها صدقا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ « سورة الإسراء/١٠٧ » أي إن كان ما وعدنا الله في كتبه المتقدمة وعلى ألسنة رسله من إنزال القرآن وبعثة محمد لمفعولا ، أي لكائنا لا محالة ولا بدّ[١] .

الثاني : أن القرآن جاء بأمور صدق فيها الكتب السماوية السابقة ، بموافقته لها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ، وَمَا جعلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ « سورة المدثّر/٣١ » واستيقان الذين أوتوا الكتاب إنّما يكون بسبب علمهم بهذا من كتبهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨٦ بشيء من التصرف .

الثالث : أنَّ القرآن أخبر بإنزال الكتب السماوية ، وأنَّها من عند الله ، وأمر بالإيمان بها كما سبق بيانه .

والمهيمن في لغة العرب تطلق ويراد بها القائم على الشيء[1] ، وهو اسم من أسماء الله تعالى ، ذلك أنَّ الله تعالى قائم على شئون خلقه ، تصريفا وتدبيرا ورعاية .

والقرآن قائم على الكتب السماوية التي أنزلت من قبل يأمر بالإيمان بها ، ويبين ما فيها من حق ، وينفي التحريف والتغيير الذي طرأ عليها ، وهو حاكم على تلك الكتب لأنّه الرسالة الإلهية الأخيرة التي يجب المصير إليها والرجوع إليها والتحاكم إليها وكل ما خالفها مما جاء في الرسالات السابقة فهو إمّا محرّف مغيَّر ، وإمّا منسوخ .

يقول ابن كثير رحمه الله ـ تعالى ـ بعد أن ذكر أقوال السلف في معنى كلمة مهيمن : « وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإنَّ اسم المهيمن يتضمن هذا كلّه ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كلِّ كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها »[2]. وهذا يقتضي أن يجعل هذا الكتاب هو المرجع الأول والأخير في التعرف على الدين الذي يريده الله تعالى ولا يجوز أن نحاكم القرآن إلى الكتب السماوية السابقة كما يفعل الضالون من اليهود والنصارى ﴿ وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ « سورة فصلت/٤١ ـ ٤٢ » .

عدم حاجة الشريعة الخاتمة إلى غيرها :

الشريعة الإلهية الخاتمة لا تحتاج إلى شريعة سابقة عليها ، ولا إلى شريعة

---

(١) لسان العرب ٨٣٣/٣ مادة (همن) .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٨٧/٢ .

لاحقة لها ، بخلاف شريعة المسيح فقد أحال المسيح أتباعه في أكثر الشريعة على التوراة ، وجاء المسيح فكملها ، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور ، وكان الأمم من قبلنا محتاجين إلى محدَّثين ، بخلاف أمّة محمد ﷺ ، فإنَّ الله أغناهم به ، فلم يحتاجوا معه إلى نبيّ ولا محدّث[1] .

(1) راجع في هذا البحث مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٤/١١ .

المراجع

١ ـ الإسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي ـ طبعة دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .

٢ ـ أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ـ مؤسسة المدني ـ القاهرة الطبعة الأولى .

٣ ـ أعلام النبوة للماوردي ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة .

٤ ـ الامامة عند الجمهور ـ د . علي أحمد السالوس ـ مكتبة ابن تيمية ـ الكويت .

٥ ـ انجيل برنابا ـ طبعة دار القلم بالكويت .

٦ ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثانية

٧ ـ بصائر ذوي التمييزللفيروز آبادي ـ لجنة احياء التراث الإسلامي ـ القاهرة .

٨ ـ تفسير ابن كثير ـ طبعة دار الأندلس ـ بيروت .

٩ ـ تفسير الألوسي ـ طبعة المطبعة المنيرية .

١٠ ـ تفسير القرطبي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١١ ـ التوراة السامرية ـ طبع دار الأنصار بالقاهرة .

١٢ ـ جامع الأصول لابن الأثير ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى .

١٣ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ لابن تيمية ـ طبع مؤسسة المدني ـ القاهرة .

١٤ ـ الحكومة الإسلامية للخميني ـ نشر الحركة الإسلامية في إيران ـ وطبع مطبعة الخليج في الكويت .
١٥ ـ حياة محمد ـ لمحمد حسنين هيكل ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة .
١٦ ـ زاد المسير لابن الجوزي ـ طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت .
١٧ ـ زاد المعاد لابن القيم ـ المطبعة المصرية ومكتبها ـ القاهرة .
١٨ ـ الزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر ـ طبعة المنيرية .
١٩ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ طبع المكتب الإسلامي ـ الأولى .
٢٠ ـ شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن أبي العزّ الحنفي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الرابعة .
٢١ ـ صحيح البخاري ـ متن فتح الباري ـ السلفية ـ القاهرة .
٢٢ ـ صحيح الجامع الصغير ـ للشيخ ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الأولى .
٢٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ المطبعة المصرية ـ القاهرة .
٢٤ ـ صحيح مسلم ـ متن النووي على مسلم .
٢٥ ـ عالم الجن والشياطين للمؤلف ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت .
٢٦ ـ عالم الملائكة الأبرار للمؤلف ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت .
٢٧ ـ عقائد الامامية لمحمد رضا ـ دار الغدير ـ بيروت .
٢٨ ـ عقائد الامامية الاثنى عشرية لابراهيم الموسوي الزنجاني ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت .
٢٩ ـ العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكه ـ الطبعة الأولى ـ دمشق .
٣٠ ـ العقيدة في الله ـ للمؤلف ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت .
٣١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ـ طبع السلفية .
٣٢ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ طبعة دار الشروق .
٣٣ ـ لسان العرب لابن منظور إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب ـ بيروت ـ الأولى .

٣٤ ـ لوامع الأنوار البهية للسفارينى ـ طبع على نفقة حكومة قطر .
٣٥ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ـ جمع ابن قاسم ـ طبع الرياض ـ الطبعة الأولى .
٣٦ ـ مجموعة الرسائل المنيرية ـ طبعة مصورة ببيروت .
٣٧ ـ محمد نبي الإسلام .
٣٨ ـ مختصر التحفة ـ الأثنى عشرية ـ لمحمودشكري الألوسي ـ طبع المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ .
٣٩ ـ مختصر صحيح مسلم ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٤٠ ـ مسند الامام أحمد ـ تصوير المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٤١ ـ مشكاة المصابيح ـ للتبريزي ـ طبعة المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ الأولى .
٤٢ ـ المصباح المنير للفيومي ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة .
٤٣ ـ معجزات المصطفى لخير الدين وانلي ـ مؤسسة ومكتبة الخافقين ـ دمشق .
٤٤ ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم ـ طبعة صبيح ـ القاهرة .
٤٥ ـ الملل والنحل للشهر ستاني ـ دار المعارف ـ بيروت .
٤٦ ـ نبوة محمد من الشك إلى اليقين ـ د . فاضل السامرئي . مكتبة القدس بغداد .
٤٧ ـ نظرات في النبوة لصلاح الدين مجيد ـ مكتبة القدس ـ بغداد .
٤٨ ـ نيل الأوطار للشوكاني ـ طبعة الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية .
٤٩ ـ هداية الحيارى لابن القيم ـ ضمن مجموع بعنوان : الجامع الفريد ـ نشر دار الافتاء ـ الرياض .

محتوى الكتاب

كتب للمؤلف

١ ـ العقيدة في الله
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار
٣ ـ عالم الجن والشياطين .
٤ ـ الرسل والرسالات .
٥ ـ أصل الاعتقاد .
٦ ـ معالم الشخصية الإسلامية .
٧ ـ مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لربّ العالمين .
٨ ـ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم .
٩ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه .
١٠ ـ ثلاث شعائر .
١١ ـ الصيام في ضوء الكتاب والسنة .
١٢ ـ مواقف ذات عبر .
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة .

يُطلب هذا الكتاب في
المملكة العربية السعودية
من

دار الهجرة للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة: ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض: ٤٧٩٢٠٥٥



هاتف ٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس ٦٩٣٩٤١
ص.ب ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ ـ الاردن